آراء وأفكار

حول فلسفة الإخوان المسلمين



عبد الخالق محجوب



آراء و أفكار
حول فلسفة الإخوان المسلمين

عبد الخالق محجوب



دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم ـ السودان

الكتـــاب : آراء وأفكار حول فلسفة الإخوان المسلمين
المؤلـــف : عبد الخالق محجوب

رقم الايـداع : ١١١٩١/ ٢٠١٧
سنة الإصـدار : ٢٠١٧

الطبعة الثالثة

الناشـــر: دار عـــزة للنشـــر والتـــوزيـــع
الإدارة: شارع الجامعة – الخرطوم – جنوب وزارة الصحة
ت : ٢٤٩٩١٢١٣٧٢٩٦+
٢٤٩١٢٣٣٥٠٣٥٠+

التوزيـــع : دار عزة للنشر والتوزيع ت : ٨٣٧٨٢٠١
السودان – الخرطوم ص.ب : ١٢٩٠٩
بريد إلكترونى : azzaph@yahoo.com

ردمك: ١٧ – ٥٤ – ٩٩٩٤٢

إهداء

إلى ... تلك الأسرة الصغيرة التي أورثها الشهيد عبد الخالق مجد الأفكار النيرة وصلابة النضال الحي.

إلى ... نعمات مالك وعمر ومعز.

نور الهدى

مقدمة الناشر

في الوقت الذي يتمتع فيه العالم بأجمعه. بآخر منتجات تكنولوجيا صناعة الكتاب. شكلا ومضمونا وانتشارا. ظل الكتاب السوداني رهين الأدراج والملفات والطباعة الرديئة. لا يحرك ساكنا بفعل أزمة (غريبة) للنشر والطباعة دامت لأكثر من نصف قرن من الزمان. وقفت عائقا معقدا في طريق حركة الفكر والإبداع في بلادنا. وبلا شك ساهمت ضمن عوامل جوهرية آخرى في حالة الانعزال الثقافي التي نعاني منها. نحن أجيال التيه المتتابع.

ورغم كل شيء ظلت سماء بلادنا تحتفل بميلاد النجوم كل مساء.. بجدارة المبدعين والمفكرين الأوفياء الذين ظل إنتاجهم يتواصل لفتح كوة تضئ قتامة العزلة إلكئيبة إلتي عتمت المشهد الثقافي ثم الانطلاق لمعانقة العالم والتواصل معه من أجل إقامة الحوار الإنساني المفتوح وهذا ما تهدف إليه دار عزة في مشروعها المتكامل لأداء واجب التصدي لأزمة النشر بالوثوق المطلوب ابتداء. وليس من باب التفاؤل (الساذج) ولكن ثقة في نفسها وثقة في المبدعين والمفكرين السودانيين. بمختلف تياراتهم ومنطلقاتهم وأجيالهم. الذين هم أول من تأذى من الأزمة. فمعا سنبلغ ما نريد من مشروع عزة للنشر الذي سيتواصل من أجل المساهمة في ديمقراطية

الثقافة والتثقيف. منبرا للتعدد والحوار الفكري الرصين ومـن أجـل آفاق جديدة للكتابة الإبداعية. ومن أجل أن يكون الكتـاب ذو القيمـة المعرفية العالية منتجا بشكل يتطابق مع فكرته جماليـا وجـودة فـي الأداء الطباعة. وفي متناول الجميع أفرادا ومؤسسات.

هذا هو المشروع الحر الذي تنهض به دار عزة للنـشر الـذي يتسم بحساسية مرهفة تجاه سماته الأولى التي تعني الحرية والتنـوع والجمال الذي يشمل كل شيء وهي تشكل العصب الحي في كـل مـا تسعى إليه وتعمل من أجله، المعرفة للجميع.

دار عزة للنشر والتوزيع

الخرطوم- السودان

كتب وأفكار

منذ أن أخذ الإنسان يفكر ويتقن الفكرة كان يحاول أن يلتمس لفكره النفاذ ولطريقة التمهيد. واعتنق الإنسان أفكارا وعقائد كثيرة دارت أكثرها حول نفسه ومستقبله وسلطانه وبقائه. فأظهر ما شاء من فكر أخفى ما شاء من فكر أخفى ما شاء من رأى حتى يبلغ أقصى ما يريد. وكلما كان الداعية المفكر صاحب دهاء أعلى من مستوى التابعين استطاع أن ينشر فكره وأن يوطد رأيه. بعض هذه الآراء يجعلها للنشر وبعضها يجعلها للخاصة وبعضها يجعلها للعامة. ونحن في أشد ما نكون عناء من هؤلاء الدعاة الذين يستبطنون شيئا فيخفونه ويجاهرون ببعضه وينشرونه والدعوات التي صلح لها هذا المبدأ الذي يظهر شيئا ويخفي شيئا هي التي أرادت أن تسوق الناس على حساب العقيدة وهي تعلم أن صريح العقيدة والدين لا يساير ما تهدف إليه، ولكنها وجدت أن أكبر قدر من الخلق يتقلب في ظلال عقيدة وهي بحاجة إلى هذا الجمهور الضخم فما لها لا تسلك له طرق ظاهرها فيها الرحمة وباطنها فيه المصلحة؟ لا نعدو الحقيقة أن قلنا أن جماعة الإخوان المسلمين. هي تكرار لما سبقها من دعوات تقمصت ثياب الإسلام وتسترت في بعض آية الداعية للحق والعدل والإيمان. ثم هي في خلال ذلك تجد ساعية للحكم الذي يسعد الزعماء

ويرفه على الاتباع ولو جاءت هذه الدعوة في بلاد غير بلاد المسلمين لظن بها أنها تدعو إلى الله وتقبل على العمل لمرضاته، أما وقد فعلت ما فعلت في بلاد مسلمة فلابد أن ينكشف أمرها على الناس جميعا لا سيما الذين أضلهم الدعاة وجعلوا منهم أداة للعمل والسعي دون وعي وبصيرة. وهذه كتبهم وأفكارهم التي حاولوا التمويه بها على الناس تقدم ما أتسع له المجال نناقشه ليظهر ما فيه من خلط الرأي وسوء البرهان وليعلم المخدعون من المتشبثين بهذه الجماعة إنهم إنما يعملون لشيء غير الإسلام بل هم مساقون في سرعة جامحة وقد سلبوا الفكرة والتمعن وهما أهم خصائص الإنسان لينفذوا الطاعة المضروبة عليهم والطاعة في هذه الصورة هي أشر وسائل التهديم والخراب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون بل وأي دمار على قومهم يسوقون. وليست مثل هذه الدعوة بجديدة على محيط المسلمين. ولعلنا نعرف شيئا عن تاريخ الخوارج (الحروبية) الذين أثاروا فتنة شعواء تعب منها المسلمون وجاهدوا في سبيل الخلاص منها وهي مع كل ذلك تدعى أنها هي الفئة المؤمنة وما عداها كافر مارق يباح دمه وماله. وهي الفكرة- في إباحة المال والدم- التي تطورت اليوم وسميت جاهلية القرن العشرين، في كتاب للداعية محمد قطب على أن الخوارج مع ما هم عليه من سوء كانوا صريحين للغاية في أغراضهم وأهدافهم فهم عرب بدو لا يعرفون شيئا من المكابرة والمداهنة بل سبيلهم إلى ما يقصدون السيف والعنف، ولكن جاءت من بعدهم فرق أخرى فطورت ما كان الخوارج يقصدون من سعي

للخلافة والسلطان فجعلت سبيلها إلى كل ذلك محفوفا بالفكرة المعماة والدعاة المفكرين الذين يحسنون السعي إلى القلوب مع القدرة على التشكل في كل حين بحسب ما يقتضيه الموقف، فجاءت الفرقة التي سميت بالباطنية وأخذت من الدين ما شاءت فجعلته لها أساسا وذهبت به مذاهب خفية لتسوق الناس إليها مذاهب خفية لتسوق الناس اليها ونشطت هذه الدعوة نشاطا كبيرا وكان من ضحاياها أمراء ووزراء. وهابها الناس لما سلكت الإرهاب سبيلا إلى ما تريد فقام لها الإمام الغزالي وفند رأيها ودعى لمقاومة أفكارها الخارجة عن الإسلام. وليس غريبا على العالم الإسلامي مثل هذه الأفكار والجماعات التي تقوم في كل زمان ومكان وتدعي الصلاح والتقوى وهي من خلال ذلك تسعى جاهدة للسلطان عن طريق غير مشروع وتدعي إنها ستنفذ أحكام الله في العباد وستقيم القسط بين الناس. ونسأل من هم وما هو هَمّ هؤلاء القوم ؟انهم يعيشون في هذه الأرض ومع غيرهم ثقافة وفهما وتدينا وأسلوبا في الحياة، لم ترتفع نفوسهم إلى مراقي الكمال والعفة ولم يتبعوا بعض ما أراد الداعية النظري في الكتابة، فهو يريد أن يفهم الناس القرآن ويعملوا به. أعني أن يدرسوا القرآن للعمل به حتى يصبحوا كالصحابة المؤمنين أمثال عمر وعلي وهم سبب الفتنة والنضال المر بين المسلمين. فمتى وفي الصحابة من لم يكن في إيمان عمر وعلي يبلغ أهل هذه الدعوة من الإخوان ذلك المرقى؟ إن صح أنهم سيصلون إليه وهذا جواز عقلي بحت ففي ذلك الوقت سيلقى إليهم الإسلام بأفلاذه وسيسلم ذلهم مقود قيادة. نحن لا نيأس

من أن تقوم التربية السليمة على أصولها فتخـــرج للنـــاس جماعـــة سليمة من عيوب الطمع والأنانية والإرهابية.

قلت كل صاحب فكرة ركب لها وسيلة من التعبير لبلاغها وهكذا فقد ألف دعاة الإخوان كتبا للدعوة، وليلتف جمهور الناس حولهم ثـم يتم لهم ما يريدون لهذا الدين ولهذا الوطن من خــراب ومــا الــذي تنتظره من قوة تسلب ذويها العقل والفكر وتدعوهم للطاعة أن تفعـل أنها ستقود العباد والبلاد الجاهلية حقه. وعلينا نحن نقرأ هذه الرسالة التي كتبها سيد قطب وسماها معالم في الطريق أن ننظر فيهــا إلــى خفايا ما استبطن من فكر وإلى الحالة النفسية التي كانت تسوقه وهو ينفث هذه الأفكار.

وأريدك أيها القارئ أن تفرق بين ما يدعو له الدين وما يــدعو له قطب. وهو يسوق لك دعوة الدين التي هي محل اتفاق وفي خــلال ذلك ينشر ما يريد من رأي وعندها ستعلم النفس المرهقــة والــروح الآثمة التي تطالعك من خلال أقواله أنظر إليه وهو يتحدث فــي آخـر فصل من كتابه وتحت عنوان (هذا هو الطريق) وكأنما أراد أن يوحي أنه في معالمه لم يوفق إلا هذا الطريق فقرر أن هذا هو الطريق. فــي هذا الفصل حديث عن قصة أصحاب الأخدود وما ورد فيهــا مــن آي كريم. وليس في هذا أمر يغيب على المسلمين والدارسين منهم علــى الخصوص. وهو يريد أن يبين للناس أن أصــحاب العقيــدة يلقــون الاضطهاد والظلم من المستبدين. وهذه حقيقة قررها القرآن الكريم في

حادثة الأخدود فما الذيبريده قطب؟ يريد أن يقول بلسان الحال كما يقولون أنه وجماعته يشبهون أصحاب الأخدود وقد ظلمهم الظالمون المستبدون- وهم أهل العقيدة وقد حاربهم الاستبداد في عقيدتهم- هل هذا صحيح؟ وما وجه الشبه بين الأخوان وأصحاب الأخدود وهل سعى أصحاب الأخدود عن طرق الإرهاب للملك والسلطان أم كانوا أهل عقيدة وإيمان وبسبب إيمانهم المطلق حاربهم ملوك اليمن؟

يقول قطب: (أن المعركة تبين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست شيئا آخر على الإطلاق وأن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان- إنها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية) هذا نص كلماته في ص٢٤٨. فهل كانت المناهضة لجماعة الإخوان لأنها آمنت بالله ومجدت سلطانه على الأرض وكفر الآخرون بالله لذلك ناهضوا وجودهم ودفعوهم دفعا ومنعوهم مما ممارسة الإيمان الذي هو ليس سياسة ولا اقتصاد؟ إن ذلك إن كان قلب وعبادة واصبح لله وعمل بما يرضيه وليس فيه قتل ولا تدمير ولا نسف ولقد كتب الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب عن هذه الجماعة فقال: (فكنت أرى الشباب المنضم إلى هذه الجمعية شبابا يتحلى بالفضيلة ولكن مع الأسف أراد زعماؤها السيطرة والحكم، فاستخدموا القنابل وسفك الدماء وكانت النتيجة مأساة ضاع فيها رئيس حكومة ورئيس حزب).

ويمضي قطب- فيقرر أن المشركين عرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المال والحكم مقابل أن يدع العقيدة فرفض.

ونحن لا نعلم أن أحدا من الإخوان المسلمين قد عرض عليـه الحكـم والمال والسلطان فرفضها وانطوى على العقيدة فما هـذا إلا إفتـراء وأين الشبه بين رفض النبي للدنيا وسلطانها وإقباله على الله والعقيدة وبين ما عليه المرحوم سيد قطب؟ مثل هذه الأحاديـث يـسوقها فـي خلال ما يقرره القرآن فيخدع بها الـسذج مـن جماعتـه فيهللـون ويكبرون ويظنون أن الفيلسوف قد جاء بالأمر العجاب والمؤلف يجمع شتيتا من الأفكار وهو يتحدث في كتابه فبينما تراه يـذكر مـا تلقـاه المؤمنون بسبب الإيمان إذا به يلتفت عن كل ذلك فيقول في ص ٢٤٨ (وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة رآية العقيدة اقتصادية أو سياسية أو عنصرية كي يموهوا على المسلمين حقيقة المعركـة). فما هيهذه المعركة التي موه فيها اعداءقطب عليه كما يقولون مـن الاقتصاد والسياسة والعنصرية؟ إذا كان الأمر الذي يدعو إليه قطـب هو الإسلام فالإسلام يبيح للمسلمين أن يفكروا في السياسة والاقتصاد ويطلق أفكارهم وإفهامهم واجتهادهم بحيث يصلون إلى الغاية الفضلى للحياة السليمة ولو أراد قطب أن يقول شيئا في الاقتصاد والـسياسة مخالفا للدين. وعلمنا ذلك منه لكان لنا رأي فيما يقـول. ومـا هـذه العنصرية التي يكرهها ويسوق قومه لمناهضتها والإسـلام لا يكـره العنصرية إلا إذا ترتب عليها ضرر يلحـق الإنـسانية قـال تعـالى: (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) إنها كلمات يقولها الداعيـة يرقـق بها قلوب قومه ويظهر لهم أن الإنسانية هي التي تدفعه والصلاح هو الذي يقوده. وهذه أيضا وسائل الدعاة الحاذقين. ويثور قطـب ثـورة

جامحة لان التاريخ قد شوه فقد زعموا أن الحروب الصليبية كانت ستارا للاستعمار (كلا إنما كان الاستعمار الذي جاء متأخرا هو الستار للروح الصليبية أو هو ستار الصليبية ليس في الأمر كبير غرض إنما أراد قطب- أن يدعو دعوة أخرى غير أن يغير ما ذهب إليه المؤرخون- وهو يعلم أن الاستعمار هو الجانب العملي المفكر للحروب الصليبية وأن الدين هو جانب الدفع والسوق من غير شرط لنصرة ما دعت إليه الكنيسة. ولكن قطب يريد أن يصور العالم كله في صورة حرب دينية لا تفتر، فهذه الصليبية في كل شيء تلاحقنا إذا صح ذلك فلم كانت المعاونة قائمة بن جماعته والأمريكان والإنجليز؟ أنسى أنهم يؤمنون بالصليب ويتبعونه؟ إني هنا أخاطب أولئك الأتباع المخدوعين من جماعة الإخوان. أريد لهم علم الله أن يتمعنوا الأفكار وأن يردوا الحقيقة بعيدا عن أفكار صاحبهم ونعود من خلال هذه الأحاديث فننظر إلى نفسية الكاتب ودوافعه لقد كان أديبا ناقدا وكاتبا ممتاز الأثر، ولكن الجماعة- الإخوان المسلمين- وجدت فيه الفتى المتطلع إلى المجد الراغب في أن تكن لمواهبه الأدبية مكانة مرموقة ومصر كانت وقتها يتسلق إلى منصة الوزارة والزعامة كل داعي أفاك. فأعجب قطب بما لوحت له به الجماعة في أن يصبح زعيما أو وزيرا فمال إليهم وراحت كتبه في أوساطهم ونحن لا ننسى حكم الثقافة والبيئة فقد تخرج قطب من دار العلوم إذ وجد نفسه عند إسلام يحتاج إلى فلسفة خاصة وقيل له من غيرك في أدبك يعمل ويعمل وهتاف المجد يتصل بنفسه وداعية السلطان المتفرد كل يوم تقوم له

بالدلائل والبينات- فنظم في السر ودعى في العلن وفلسف كل ما يرقى به إلى مصاف السلطان. فإن تألم سيد قطب فإنما يتألم من حرم المجد وهو بهذا حانق غاضب لا على أهل الصليب وعابديه ولا على المستعمرين وأذنابهم وإنما على أبناء مصر الذين حرموه من أن يكون ملتقى العيون وسيد الموقف وقسطاس الحاكمين فالأمر لا يخضع لمقالبه أبناء الوطن الواحد في طرق الحياة ولكنه الحقد المقدس يصبه قطب على قومه خاصة وكل ما جاء في رسالته إذا أمكن القارئ أن يطلع عليها لوجده إنما يسلك هذا المسلك النفسي المتهافت حسد وحقد وكل ذلك قد نهى عنه الشرع وقبحه. يقولون أن عبد الله بن عمر بن الخطاب مر بعبد الله بن الزبير وهو مصلوب في مكة فقال: رحمك الله أبا حبيب فقد كنت صواما قواما ولكنك رفعت الدنيا فوق قدرها وعظمتها ولم تكن لذلك بأهل..) فإذا كان هذا شأن الصوام القوام ابن الزبير بن العوام فقد ضلته الدنيا وساقته إلى بهجتها بمقود من الأثرة عظيم فكيف بصاحبنا وقد رأى أن هذه الجماعة الفاتكة سندا يبلغه المآرب وقد خلى الجو من المنافسين الأولين؟ وهكذا فنفس قطب المظلمة تتحرك من خلال كتابه فتهيج على العالم كله مرة وتعود إلى مصر مرات. فالعالم في جاهلية كل ما فيه سوء حتى الفلسفة والآداب والفنون كلها جاهلية. وعلى قطب وقومه أن يتطهروا من هذه الجاهلية فيتخذوا لهم سبيلا آخر للدرس والمعرفة حتى إذا خرجوا من ثقافة الجاهلية ونقوا ضمائرهم من

أوضارها جاز لهم أن يجلسوا مجلس النبوة الجديدة، وأن يمزقوا ما أبتكر الإنسان من أدب وفلسفة وفن.

قلت أن الداعية لابد أن يكون حاذقا يلبس الحق بالباطل إذا شاء ويعمى على أتباعه ما شاء فانظر إلى سيد قطب كيف تحدث عن أسلوب التكوين الأول للمسلمين الأولين وكيف استطاع أن يقرر أشياء وأن يبعد أشياء ليصل لبعض الأحكام المترتبة عن براهينه فهو أولا يقرر أن هذه الفئة القليلة من المسلمين الأولين لم يعد مثلهم إلى مسرح الوجود ويبحث عن السبب فيقرر أنه النبع الذي كان يستقي منه ذلك الجيل وهو القرآن (كان القرآن هو النبع الذي يستقون منه ويتكيفون به ويتخرجون عليه) وثانيا: أنهم كانوا يقرءون القرآن لتلقي أمر الله لا للثقافة والتذوق والمتاع: ثالثا: كان الرجل إذا دخل الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية). يقرر الداعية قطب هذه الأسباب ويجعلها هي التي كونت الصفوة الأولى من المسلمين ويستبعد أن يكون لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم أثر في ذلك التكوين. ونحن لا نسايره في هذه الدعوى فقد أراد كما أراد غيره من أصحاب المذاهب أن يجعلوا من شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبلغا فقط تنتهي مهمته بانتهاء أجله من هذه الحياة.

والحقيقة أن النفس البشرية تحتاج إلى كثير من العلاج والتأثر والأثر وعملية الإيمان كثيرا ما يعتورها الشك لذلك فقد رجا كثيرون أن يثبتهم الله على الإيمان الصادق. وحديث إبراهيم عليه السلام ليس

ببعيد فقد ذكره القرآن:(قال ربي ارني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) إذن هذه الخوارق من المعجزات تزيد في اطمئنان القلب والايمان فالذي شهد الرسول الكريم والمعجزات تجري على يديه والوحي ينزل عليه أكبر إيمانا وأشد تمسكا بعد إيمانه بهذا الرسول من قطب وأمثاله ولو درسوا القرآن والحديث وأمعنوا في ذلك- درسا وتحصيلا إذا فقد أراد قطب أن يبعد عاملا هاما في تكوين الجيل الأول من المسلمين. والحقيقة لم يكن أهل الجيل كله في مرتبة واحدة ولو كانوا كذلك لما حدث ما حدث.

يقرر قطب فيقول في ص٢١: (نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم كل ما حولنا جاهلية. تصورات الناس عقائدهم عاداتهم تقاليدهم موارد ثقافتهم حتى الكثير مما تحسبه ثقافة إسلامية ومراجع إسلامية.. هو كذلك من صنع هذه الجاهلية).

أنظر إلى هذه الأفكار التي يسوقها الكاتب كل شيء في هذه الدنيا جاهلية عابثة حتى ما يسمى مراجع إسلامية ولعله يعني كتب الفقه والحديث فهي التي نسميها مراجع إسلامية أحقا أراد قطب هذا إننا لا نجد طريقا نعذر بها قطب فأنها غضبة من غضباته الحانقة يصبها على العباد والبلاد فيمرق كما مرق السهم يهاجم كل شيء وما عليك إذا أردت أن تخرج من هذه الجاهلية الجهلاء التي هي أشد من الجاهلية أبي جهل وأبي لهب إلا أن تدخل جماعة الإخوان فتتخلص من جاهلية الحياة وجاهلية الممات. إني اسأل العقلاء من جماعة

الإخوان وأرجو إلا يعدموا العاقل- ما هي المراجع الإسلامية الجاهلية. التي عناها سيد قطب؟ وهل تعلمون منها شيئا؟ وإذا كانت كذلك فلم لم تذكروها واضحة ليتجنبها الدارسون في المعاهد والجامعات؟ ثم ما هي البراهين على جاهليتها؟ قد يذهبون مذاهب السفسطة في الحديث عن التقاليد والعادات بل والمعتقدات الجاهلية- ولكنـي لا أعـرف كيـف تسفسطون هذه المراجع؟ وكيف صنعت الجاهلية أم إنكم بدع من خلق الله خلقكم وسواكم لإشاعة هذه البلايا على خلقه.

ثم يقول قطب: (ثم لابد مـن الـتخلص مـن ضـغط المجتمـع الجاهلي. إن أولى الخطوات أن نستعلي على هذا المجتمع وإلا نعـدل في قيمنا وتصوراتنا قليلا أو كثيرا لنلتقي معه في منتصف الطريق أن مهمتنا تغيير هذا الواقع الجاهلي من أساسه).

الذي يقول مثل هذا الحديث أما أن الثقة قد ملأت عليه أرجـاء نفسه فهو يرسل هذه الموعظة أو الأمر إلى الاتبـاع لتكـون مكـان التقدير والتنفيذ وأما أن يكون مأفونا جلس يرسل عينيه إلـى فـضاء فسيح وينفث قلمه ما تراكم على ذهنه من أباطيل. من هم الذين قصد إليهم أن يتخلصوا من ضغط المجتمع الجاهلي أيعنـي أولئـك الـذين نراهم يجددون الصلة المادية بينهم وبين شياطين الملـوك أو أولئـك الذين يعقدون المودة بينهم وبين سانو وما دراك ما سـانو؟ لهـم أن يستعلوا على المجتمع بمعنى أن تنـشر صـحفهم الـسباب والـتهم والبهتان. وعليهم أن يمضوا في طريقهم فيقرروا ما فـي المجتمـع

بالقوة الطائشة والفوضى الماحقة يلاحقون صغار طـلاب لاجتـذابهم بالإخافة والتهديد وخلق التهم، والإسلام علم الله برئ منهم. قل لهـم لقد جاء الحق وزهق الباطل. وهكذا إذا جاءت دعـوة باطلـة تلقتهـا أيدي المفكرين لتردها إلى أحجارها ولتخلص منها الناس.

في هذه الرسالة التي كتبها سيد قطب. معالم في الطريق- تجـد مزجا عجيبا بين شخصيتين شخصية كتبت بأسـلوب رصـين معتـدل وشخصية أخرى في أشد حالات الاضطراب تدعو إلى العنف والـشدة وتحطم في هذه ما بنته تلك- وذلك أن الكتاب جمع بين مقالات كتبـت في ظلال القرآن- ومقالات أضافها الكاتب لما كتب فأنت في الأول تجد الرجل السوي الذي كتب قبل اليوم في ظلال القرآن ينظر إلى القـرآن فيستجلى ما فيه من جمال الأسلوب وروعة البيان وحـسن المقـصد لذلك تأتي نفس الكاتب مرسلة على سجيتها في الكتابة أما إذا تغيرت الحال واستطال الأمل وارتفعت بقطب أسباب الزعامـة فجلـس يـشد الخيوط المرسلة بينه وبين أصحابه فعندها تصور العالم في جاهليـة تحتاج إلى تغيير كامل ويد من حديد للاستيلاء على الـسلطان فلـيس تغيير إلا بسلطان وهنا يدرك نفسه الحقد والداء الدفين فتحس عنـدها إن الذي أرسل هذه الكلمات لم يكن هو ذلك لولا أنـه قـال فـي أول رسالته إنها مقالات جمع بعضها إلى بعض. إني لأذكـر سـيد قطـب الأديب الناقد فأرثي لما وقع فيه من مصيدة نصبها له قوم لهم مراس طويل بالحيل والسياسة ولعله دخلها عن رضى بما توحي به الزعامة

من شموع وقصور ولعله أراد أن يستعجل متاع الآخـرة فـي دنيـاه فذهب يؤجج النار المقدسة في نفوس أصحابه. وقـد كنـا نحـسبها جماعة تدعو لصالح الأعمال وتحـسن الـدعوة للإسـلام بالحكمـة والموعظة الحسنة ولكنها أبانت عن رغابئها المدفونة وأوضحت أنها كانت تتملق الملكية المـصرية وتـستجدي، وتقـدم نفـسها للـولاء والإخلاص للعرش وهي تعلم على أي شيء كان يقوم ذلـك العـرش. ولكنها وجدت أن طريقهما واحد. فلما لم يرد الله للاسـتعمار البقـاء وأراد للوطنيين العزة. ظهرت دعوة الجاهلية والإنسانية الطلقـة وأن القومية بدع وكفر. ألم أقل لك أن كثيرا من الجماعـات المارقـة قـد استظلت بظلال من الدين رقيقة لم تلبث أن كشفت عنها الستائر وأشد ما أخشاه على اتباع دعوة الإخوان الصغار مـنهم والغـافلين- هـذه الأنانية التي تدعوهم للطاعة العمياء ودعواهم الصريحة وهي: كل من ليس معنا فهو عدونـا- يقولونها سرا ولو علم المسلمون نوايا هـذه الفئة وحقدها نفروا منها نفروا. وليعلم الناس أن هـؤلاء الإخـوان- يقولون ما لا يفعلون مثلهم في الجد والعمل الشعراء والغاوون.

نقد وتحليل

حول معالم في الطريق لسيد قطب

دعوة لإطلاق غرائز التدمير والفوضى

هذه الرسالة (معالم في الطريق) بمثابة الوثنية النظرية لجماعة الإخوان المسلمين، وقد اضطررنا للكتابة عنها لسبب إحساس الكثير من الحادبين على البلاد وعلى الأجيال الناشئة بخطورة مزالق أفكار سيد قطب التي تستهوي الناشئة وتفسد فطرتهم وتغلق عقولهم، والأخطر من كل ذلك أنها تغذي روح الرفض والتمرد في مرحلة خطرة من مراحل غرائز التدمير والفوضى،،

يكاد (معالم في الطريق) أن يكون قمة التفكير الفلسفي والسياسي الذي توصل إليه المفكر الإرهابي الشهير سيد قطب، بعد أن نظر في ثقافة الغرب سنين طويلة وتأمل في الفكر الإسلامي، وبعد نشاط عملي لتغيير المجتمع وفق ما اهتدى إليه بعد تلك السنوات من التأمل والتجارب.. لهذا يمكننا أن نقول أن هذا الكتاب هو الهدف الذي يشد نحوه حركة الإخوان المسلمين.. هو الفلسفة المكتملة لحركتهم، وموقفهم إزاء قضايا العصر المختلفة، ومنهجهم في النشاط العملي كما أنه يرسم النموذج لبطل تلك الحركة ويحلل القوانين الباطنية التي تصوغه وتحكم حركته.

لعل أبرز ما في هذه الرسالة تصور منشئها لشخص مسلم إذ أنه يقرر أن المسلم الحق الذي يحمل على عاتقه مهمة البعث- الإسلامي وإعادة الدولة الإسلامية كما كانت عليه هو نظير لتلك

العصبة من المسلمين الأوائل الذين اعتنقوا العقيدة ونمت شخصياتهم في إطارها. فما على المباحث إذا أو العامل في حقل التغيير الاجتماعي إلا الرجوع إلى تلك الفترة ودراستها، ولكن كيف يتصور المؤلف نمو الشخصية المسلمة لا يمر عبر العقل والرشد بل يذهب أبعد من ذلك ويرى القائلين بهذا الطريق قوما يتأثرون بفكر غريب عن المسلمين. (وخطأ أي خطأ- بالقياس إلى الإسلام أن تتبلور العقيدة في صورة نظرية مجردة للدراسة المذهبية، المعرفة الثقافية- خطر أي خطر كذلك) الحقيقة أن المؤلف في كل ما ذهب إليه لا يقتصر على مهاجمة بلورة العقيدة في صورة نظرية راشدة- ولو كان كذلك لوجد العذر- ولكنه ينقل الإقناع الإسلامي من حيز العقل إلى حيز جديد يسميه حيز العقيدة. وهذا التفكير يجافي طرق المعرفة وهي كما يعرفها المسلمون الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل كما أنه يتجنى على واقع الإسلام فالمعرفة الإنسانية في حيز علاقة الإنسان وتجارب المجتمع لا تتم في حيز أقسام مغلقة بجهازه العصبي هذا قسم للعاطفة وذا قسم للعقيدة وذلك للرشد بل تتم في تفاعل بين أفرازات ذلك الجهاز.. واكتشاف قانون الجاذبية مثلا يلهم العقل ويلهب العاطفة في وقت واحد ولا تستقر المعرفة إلا بهذا الازدواج.

نظرية تتجاهل تاريخ المعرفة

والفن سبيل الإنسان لاكتشاف ذاته وقوانينه الباطنية يصل إلى العقل عبر العاطفة، وإذا بقى محجوزا في إطار العاطفة فانه لن يرتقي إلى مستوى المعرفة ولن يسهم في مجموع الحكمة الإنسانية، وفي معرفة الإنسان بخبايا ذاته. عندما تشرق معرفة جديدة في علم الطبيعة أو الكيمياء أو أي فرع من فروع العلوم الطبيعية والتي لا تبدو ذات صلة بعاطفة الإنسان وغريزته وعقيدته فهي تبهر الإنسان وتلهمه عاطفة سامية الارتقاء بجنسه، وتغذي أحلامه السامية لتجسيد الكون على نمطه. حتى مراحل التاريخ التي ساد فيها العقل وقدس منطقه كان ذلك تحت تأثير الانفجار العاطفي للثورة البرجوازية تعبيرا عن انبهار الإنسان بملكاته وبقدرات (ذلك العالم الجديد المقدام الذي يضم في ثناياه مثل الناس) والعقيدة التي يتكلم عنها المؤلف محاولا حبسها في إطار لا يصل إليه العقل هي وليدة الإنسان الكامل في تركيبه الفسيولوجي الخارج من نطاق الوظيفة العضوية والمالك للجهاز العصبي.. بالفكر يبحث الإنسان عن كنة نفسه وعن أسرار التغيير في الطبيعة فيرتقي عبر عقله في مدارك الفهم والإيمان ولو كان ذلك العقل بوالايمان ولو كان هذا العقل بعيدا عن هذا النشاط المتشابك لبقي الإنسان في درك سحيق لأقتنع بالامتثال لمظاهر الطبيعة دون النفاذ إلى، لبقي اسيرا للسحر وطقوسه..ان المؤلف يقدم

نظرية للمعرفة ممعنة في الخطأ متجاهلة تاريخ الإنسان في المعرفة، وكل دراسة لمعرفة باطن الإنسان وتركيبه.

وتجافي نظرية الكاتب واقع الإسلام وطرقه للمعرفة. فالمعرفة كما جاءت في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا تنكر مخاطبة العقل، بل تدعو إعمال الفكر وتمازج بين جناحي المعرفة: العاطفة والرشد.. وعندما يقول القرآن الكريم:(ادعو الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) فأنه يحدد ما يخاطب في الإنسان الجاهلي لتغييره نحو القيم الجديدة: فالحكمة هي جماع المعرفة الإنسانية والموعظة تتجه إلى الرشد وتدعو إلى التأمل قبل إثارة الغريزة.. وما كان من الممكن تغيير الإنسان العربي إلى مواقع الدعوة الجديدة إلا بالحجة، فالجزيرة العربية قبل الإسلام كانت تعاني من القلق الذي يسبق التغيير وما كان ذلك المجتمع الراكد الذي يعيش على مسلمات لا مكان لتغلب العقل.. بينها فالغساسنة والمناذرة يتخذون المسيحية منهجا لفهم الحياة، واليهودية تسيطر على مراكز هامة في يثرب، وتتصارع تيارات فكرية في اليمن ويتلفت الجاهلي الذكي الجاهلي الذكيويقلب وجهه في السماء، معبرا عن قلقه وشكه ذلك التعبير الإنساني الجيد الذي انطلق على لسان قيس بن ساعدة الايادي. وتحت تأثير هذه الموجات الفكرية يتأهب الإنسان للتفكير وتأتي الدعوة الجديدة، لا تكاد آية من آياتها إلا وتسلك طريق الحجة بديلا للقلق والشك. فالدعوة التي تنادي الناس بهجرة آلهتهم لابد أن

تجي: لماذا؟.. والدعوة التي تدعو إلى التوحيد عليها أيضا أن ترد على كل تساؤل.. أن الأداة لتغيير الإنسان هي عقله، والتهاب عاطفته اما شمولا للحجة المقامة أو عجزا عنها وتسليمابالقوة وراءها. فإذا رأى الإنسان أعجازا لم يعرف كنهه فهو ينبهر وتستقر المعرفة في نفسه، قوة عجز إدراكه عن تفهمها. وهذا أيضا لا ينفي أعمال العقل وتوسل المعرفة للاستقرار عن طريقه.

خلط بين الحقيقة والمنهج

ونرى المؤلف في خطاه الشنيع إزاء المعرفة لا يفصل بين الحقيقة والمنهج، فيرى أن الحقيقة الإسلامية المستقرة هي المنهج الإسلامي في نفس الوقت... وبهذا يرفض كل منهج سلكه علماء الإسلام لإدخال حقائق الإسلام في باب المعرفة. فعلم الكلام القائم على منطق أرسطو والذي واجه علماء الإسلام به تحديات الأديان الأخرى واقتحموا به أسرارها، والذي اغنى الفكر الإسلامي كثيرا وروضه على التفكير الرشيد مرفوض من المؤلف لأنه منهج منفصل وجدب يسعى للوصول للحقيقة. يقول المؤلف: (إن المنهج في الإسلام يساوي الحقيقة. ولا انفصام بينهما.. وكل منهج غريب لا يمكن أن يحقق الإسلام في النهاية.. فالتزام المنهج ضروري كالتزام العقيدة وكالتزام النظام ضروري كالتزام العقيدة والتزام النظام في كل حركة إسلامية) وبهذا يرفض الكاتب فروع المعرفة الإسلامية المختلفة التي قامت على اختلاف مناهج التفكير للوصول للحقائق الموضوعية والباطنية، وما عاد للاجتهاد معنى. والتفكير الإسلامي بين دفتي القرآن الكريم والسنة متنوع في مناهجه لإقناع الناس بوحدانية الله، وبرسالة محمد (صلعم) فهو يدعو تارة إلى التأمل في عظمة الكون وتارة أخرى إلى استقراء التاريخ وسير الأمم التي خلت الخ، وكل تلك مناهج للمعرفة وللوصول إلى الركن الأساسي في الإسلام ونعني

الشهادتين.. ولان هذه المناهج متعددة استطاع الإسلام أن يحمي تحت مظلته المناهج الإنسانية المختلفة التي تقرب الناس من المعرفة في مراحل مختلفة من مراحل العلم والتجربة.. ماذا كان يعني عمر بن الخطاب في وصيته المشهورة في حقل القضاء: (الفهم فهما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة) إلا يعني ذلك الرخصة للمفكر الإسلامي لأعمال العقل وللاستنباط؟ وكيف يستنبط الإنسان إذا لم يكن له المنهج العقلي النابع من المستوى العام الذي توصلت إليه المعرفة الإنسانية؟

فلسفة تحتقر العقل

الخطير في دعوة سيد قطب حول نظرية المعرفة، ودور الفكر الرشيد، والخلط بين المنهج والحقيقة هو أن تلك الدعوة تؤدي في النهاية إلى احتقار العقل في حركة سياسية تنشد تغيير المجتمع.... وليس لمثل هذه الدعوة نظير في أيامنا المعاصرة إلا بين فلاسفة المدرسة الألمانية الذين مهدوا لقيام الحكم النازي، وفلسفوا كل فظائعه، فالعقل في نظرتهم أعيته السبل ولا أمل في بعث الحياة لا بتعلقها بفرد قوي الجانب تتجسم فيه الحقيقة والمنهج، والقوة هي المنطق والفيصل بين الحق والباطل، والحقيقة من الذي يحدد هذا المنهج الذي يتحدث عنه سيد قطب، والذي يعتبر الخروج عليه خروجا على الإسلام؟ أن المؤلف نفسه لا يقدم فكرة واحدة يدرك منها القارئ كنه ما يسميه بالمنهج، عبثا تبحث عنه فلا تجد إلا ألفاظا مبهمة حول عضوية المجتمع المسلم "وتحركه". لا مكان للحديث عن هذه الأفكار في باب الفلسفة والبحث ولكن يبدو أنها منهج سياسي لتكوين فئة من المجتمع ليس هدفها الوصول إلى الحقيقة فلا وصول للحقيقة إلا بالمنهج، إلا بالحركة القائمة على اختلاف التفكير - بل الطاعة العمياء للقائد الذي يدرك وحده المنهج والحقيقة، وقد حدد المؤلف لنفسه هذا الدور.

ولكن المؤلف يعود ويدرك أنه من الصعب خلق هذه الفئة من الناس الذين تتعطل عقولهم، الذين لا يصلون إلى الحقيقة إلا عبر القنطرة التي بينها لهم بنفسه وحدد أبعادها وهم يعيشون بين المجتمع ذاته: يتلقون من الأسرة رصيد الماضي ويعانقون الفكر الانساني في معاهد العلم ويضربون في الأرض فيحصلون على التجربة، ويدفعون بتكوينهم الحضاري في مجرى التقدم البشري يثرونه ويكتشفون ذواتهم بين خضمه المتلاطم تحت هذه المؤثرات تستقر المعرفة ويعرف الإنسان العلاقة الوثيقة بين الرشد والعاطفة، كل يغذي الأخر وينميه ويعمقه، لا طريق إذا للتكوين الجديد للإنسان المسلم كما يراه الكاتب إلا بانتزاعه من هذه البيئة، ومنحه فلسفة تدعوه إلى احتقارها واجتثاث جذوره من تربتها.

وهكذا يبشر الكاتب في رسالته الشخصية التي يدعوها للانطواء تحت لواء حركته إلى اعتزال المجتمع طرأ، وإلى الاستعلاء عليه واعتباره جاهليا لحما ودما يستند المؤلف في هذا الموقف من البيئة الاجتماعية على حجتين: الأولى هي أن ذلك كان سلوك أوائل المسلمين إزاء المجتمع الجاهلي والثانية نظريته في المعرفة التي سبقت الإشارة إليها. أهذا تفسير صحيح للتاريخ؟

لقد نزل القرآن باللغة العربية(إنا انزلناه قرآنا عربيا) وهذه الحقيقة لا يمكن أن يمر عليها مفكر من غير أن يخرج منها بالنتائج المنطقية المناسبة.

وكذلك كانت أداة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لتكوين الخاصية المسلمة تلك اللغة. واللغة هي قمة الحضارة لشعب ما، هي جماع مخيلته وتصوراته للحقيقة حي حصيلة تعميماته في الاقتراب من قوانين الحياة، هي تجسيد للحقيقة الموضوعية، فلا حقيقة لا تجد تعبيرا في اللغة، والمجهول لا تعبر عنه اللغة بالطبع. فالدعوة الإسلامية ما رفضت لغة العرب وما رفضت حضارتهم بل جمعت كل ما هو خير في تلك الحضارة ودعتهم إلى حقيقة الشهادتين وإلى المجتمع الجديد. أن الاعتزال للمجتمع يعني رفضه وهذا الرفض القاطع الذي يدعو له المؤلف في قياسه التاريخي ينقصه الإلمام بذلك التاريخ.

اعتزال ورفض للمجتمع

والأسرة وهي نظام اجتماعي وجد قبل الإسلام لم يعتزله رجال الدعوة الإسلامية بل ثبتوا من دعائمه ورفعوه إلى مستويات أعلى. فعندما يورد حادث عبد الله بن عبد الله بن أبي سلول دليلا على واجب (المسلم) كما يتصوره في اعتزال الأسرة يقع المؤلف في خطأ مؤسف فالحكمة في الحادث هي توجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) لعبد الله أن يبقى والده في داره رغم ما نال العقيدة الإسلامية منه لا العكس كما أراد المؤلف أن يوحي لقرائه، لقد أصبحت بهذا التوجيه الأسرة والقبيلة حماية للدعوة الجديدة وتفسير تاريخ الدعوة الإسلامية على ضوء فكرة الاعتزال والرفض الكلي للمجتمع يدل على تفكير فقير وسطحي عن التاريخ، فتوقيت الدعوة الإسلامية ما كان مصادفة تاريخية بل ارتبط برباط وثيق بنشوء القوى الاجتماعية الراغبة في تغيير المجتمع القديم في معتقداته وفي نظمه الاجتماعية، لقد اهتز النظام القديم فما عادت معتقداته الوثنية تقف في وجه الموجات المختلفة من التفكير والناتجة عن خروج العرب من دائرة جزيرتهم في التجارة، إذ شهد التاريخ تزايد قوافل العرب شمالا وجنوبا وفي شرق القارة الأفريقية. لقد كانت حركة التطلع إلى دين جديد قائمة في ذلك الوقت، وما عاد تفكك المجتمع القبلي القائم على النعرة قادرا على صد موجات المسيحية القادمة من الشمال، وكذلك

بدأت تنهار العادات الضارة بكيان المجتمع كوأد البنـــات وهكــذا، إذا فالمجتمع الذي تهيأ للحدث العظيم خرج من بطن المجتمع القديم يجمع بي المضطهدين أمثال بلال وآل ياسر وبين من هم فـــي منعـــة مـــن قومهم كعثمان بن عفان وغيره من الصحابة. وحركة التغيير العقيدي الاجتماعي لا تولد من لا شيء بل لابد لهـــا مـــن التهيئـــة وعوامـــل النصر.

هذه حقيقة لا يعقل أن تغيب عن ذهن مؤلف هذه الرسالة ولكن يبدو أنه هدف لتفسير التاريخ هدف لتفــسير التاريخبهــذه الطريقـــة الخاطئةجريا وراء تنظيم سياسي يبني حول نفسه الحـــواجز النظريـــة لكلا ينفذ إليه حكم العقل والرشد، فعندما يتم الاعتزال بين هذا التنظيم وتركبه روح الاستعلاء يصبح الفرد آلة صماء تحركها رغبة القائـــد وتفسيره لكل مظاهر الحياة.. يصبح الفرد الإرهابي معدا لـــدوره فـــي التحطيم المستند إلى نظرية الرفض والاستعلاء على المجتمع بأســـره الذي يعتبره المؤلف جاهليا على الرغم من استقرار الحقيقة الإسلامية الكبرى في جنبات معرفته: حقيقة الشهادتين، وعندما يقرر المؤلـــف نتيجة لسلسلة من الأخطاء النظرية وتشويه التاريخ إن المعركة التـــي يخوضها تنظيمه الذي وضع (معالم في الطريق) برنامجا سياسيا لـــه ونافذة فكرية له على أحداث الحياة ومظاهرها وحركة تغييرها: (ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية ولا معركة معركة اقتـــصادية ولا معركة عنصرية.. ولو كانت شيئا من هذا لسهل وقفها وســـهل حـــل

أشكالها- ولكنها في صميمها معركة عقيدية- إما كفر وإما إيمـــان- إما جاهلية وإما إسلام) فان فكرة تمرد ذلك التنظيم تكون قد اكتملــت، تدمير المجتمع بأسره هو ما يدعو له الكتاب..

هجوم على المؤرخين الإسلاميين

وبعد أن أعد الكاتب (الإنسان المسلم)، الطائع بلا رشد المعتزل لمجتمعه طرأ، المستعلي عليه جملة يصبح ذلك الإنسان مستعدا للحركة ولتلقي الوسيلة لتغيير المجتمع، وأية وسيلة يمكن أن يفعلها مثل ذلك الإنسان غير العنف؟ وهكذا يفسر المؤلف دعوة الإسلام وكان العنف موروث فيها، وقد ورد هذا التفسير في أكثر من مناسبة وبوضوح لا لبس فيه. ويذهب أبعد من ذلك ويفسر الفترات من التاريخ التي اتسمت فيها دعوة الإسلام بالبلاغ والبيان بأنها مجرد عرض زائل، وخطه من جانب صاحب الدعوة (صلى الله عليه وسلم) لتجميع أنصاره. ويوغل الكاتب في هذا التفسير لدعوة الجهاد باعتبارها وسيلة للدفاع عن العقيدة الإسلامية باعتبارها حربا دفاعية لا مكان فيها للعدوان، ويصف أولئك المؤرخين بأنهم يقعون تحت تأثير المستشرقين المسيحيين الذين يضمرون للإسلام شرا. (يقولون- وهم مهزومون روحيا وعقليا لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان: أن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع! ويحسبون انهم يسدون إلى هذا الدين جميلا بتخليه عن منهجه) (الكتاب صفحة ٧١).

بالطبع يلاقى هذا التفسير صعوبات عديدة أمام نصوص القرآن الكريم الغنية والمتواترة والداعية الى البلاغ والتبيان سبيلا لنشر الدعوة الإسلامية، ويجد المؤلف نفسه مطالبا بإزالة هذا التناقض في

تفسيره وهو الداعي إلى إقامة مجتمع إسلامي على نمط مجتمع الصحابة. كيف به أمام دعوة الكتاب "بالحكمة والموعظة الحسنة" و " لست عليهم بمسيطر" " وما على الرسول الا البلاغ المبين" الخ؟.. يفسر المؤلف هذا بأنه توجيه في ظروف دعوتهم للمجتمع الجديد، وانه بوجود السلطة المعوقة انتفت الصفة السلمية وأصبح العنف السبيل الوحيد لنشر الدعوة الإسلامية. هذا إغراق في الخطأ في فهم التاريخ. فأي سلطة تلك التي نشأت بعد الهجرة من مكة إلى المدينة؟.. إلا أن السلطة كانت موجودة في المجتمع الجاهلي: السلطة القائمة على تحكم القبيلة المقدمة ذات المنعة والمركز الاقتصادي المتقدم، وحمايتها لغيرها من القبائل، السلطة التي كانت حامية لمراكز التقديس والتي كانت في باطنها تقوم على قوة سادة القبيلة المالكين للرقيق. سلطة على النمط الآسيوي القديم كما هو معروف في علم الاجتماع. حقا انها لم تكن سلطة بالمعنى الحديث ولكن ذلك لا ينفي عنها صفة السلطة القائمة على القهر والحامية لنظام اجتماعي وعقيدي بعينه. إذن فالبيان والإبلاغ لم يلازما نشر الدعوة الإسلامية في حالة غياب السلطة المعوقة بل بوجودها وفعاليتها. إلا في عقول من يريدون تفسيره لمصالح حركات اجتماعية جديدة: فالإسلام رسالة لإقرار حقائق حول الوجود، والرسالة دين قبل أن تكون دعوة لنظام سياسي بعينه. فالصراع السياسي أيا كان يستلزم الوصول للسلطة، وشتان بين هذا الصراع وبين الرسالة السماوية التي تجتمع حكمتها في قوله تعالى: " واطيعوا الله واطيعوا الرسول فان توليتم فإنما على

رسولنا البلاغ المبين" وفي كثير من آيات الكتاب التـــي توضـــح دون لبس طبيعة الرسالة وطبيعة السلطة السياسية. وهذا مبحث أسهم فيه علماء الإسلام بنصيب وافر لم يعد فيه جديد أو طريف.

رسول جديد.. وسيلته الإرهاب

وفي القياس نفسه يخطئ المؤلف فهو يدعو متبعيه من الإخوان المسلمين اعتبار السلطة والدولة في البلاد الإسلامية معوقة لانتشار الإسلام كما كانت السلطة على العهد الجاهلي. وهذا قياس خطير. إذ أننا حتى لو سلمنا-، لصالح البحث،-- بانطواء الدعوة الإسلامية على العنف إزاء السلطة المعوقة وقبلنا انتفاء البلاغ والبيان عن تلك الدعوة فإن الفرق جوهري بين السلطتين. فالسلطة الجاهلية كانت عائقا أمام إقرار الحقيقة الإسلامية الكبرى: حقيقة الشهادتين لأنها سلطة تحمي نظاما وثنيا وتقوم عليه، فما العلاقة اذا بين هذه السلطة والدولة على العهود الجديدة والتي تنظم الحياة الاقتصادية والعلاقات المختلفة لمجتمع يقر أفراده ومجموعهم بتلك الحقيقة الإسلامية الكبرى؟ لقد ختم الرسول النبيين باستقرار هذه الحقيقة وما عاد البعث الإسلامي صنوا لحمل الرسالة الإسلامية التي توفرت فيها الشروط للرسول (صلى الله عليه وسلم) وحده، فلا نبي بعده. ولكن يبدو أن المؤلف يبشر برسول جديد يتحمل التبعة والصلاحيات اللازمة للرسالة، وبهذه يضمن الولاء في الفئة الجديدة التي تسعى لتنفيذ تلك "الرسالة". والحديث عن السلطة وقياسها بالسلطة الجاهلية يهدف إلى إقرار العنف والإرهاب الوسيلة الوحيدة لتغيير المجتمع وفق معالم طريقه.

يبدو هذا يبدو هذا الفكير غريبا لكل من أعطى السمع والعقل والصبر ولكن المتتبع لحركة الإخوان المسلمين التي سعى المؤلف لبعثها وتجميع شتاتها لا يرى غرابة فيما ذهب إليه الكاتب من تفسير لنظرية المعرفة والاعتزال والاستعلاء ثم العنف والإرهاب، فتلك الحركة كانت سلسلتها الفقرية عن عناصر الحرفيين في مدن مصر، ومن فئات البرجوازية الصغيرة التي سحقتها الأوضاع الاجتماعية والصراع السياسي والفكري الذي نشب بعد الحرب العالمية الثانية.

فالنمو الاجتماعي الذي شمل وضع الطبقات بمصر بعد تلك الحرب وتزايد قوة الفئات الرأسمالية والملاك، وانحدار أقسام واسعة من السكان إلى صفوف الذين لا يملكون وضع فئات البرجوازية الصغيرة والحرفيين بين حجري الرحى: الحنين إلى ماض لا رجعة له ذلك الماضي الذي سجله في التاريخ ودرجة بين الأموات. الروائي المصري الأول نجيب محفوظ في ثلاثيته، والتخوف من المستقبل القلق المضطرب. وبين هذين القطبين وجدت دعوة الإخوان المسلمين وجدت دعوة الاخوان المسلمين مرتعا: دعوة فكرية غامضة وتذبذب في النشاط العملي يطوح يمينا ويسره. وعندما تحسست مصر أوصالها ووضعت أقدامها على الطريق، وبدأت التناقضات الكبرى تحل لمصلحة الفئات الشعبية، واتجهت فئات الحرفيين (البرجوازية الصغيرة) للدخول بين جيش العاملين في الصناعات الجديدة، وبدأت الثورة في الريف بدأت الأرضية التي تشيد عليها تلك الدعوة في

الانحسار وبانحسار الأرضية الاجتماعية كان قدر سيد قطب ورفاقه أن يضعوا الفلسفة لفئة انهارت دعائمها الفكريـــة، ومبــررات وجودهــا الاجتماعي.

ومن هنا أصبح الحديث عن الجماعة المستعلية، القوية، والفرد المعتزل الذي ينهج العنف والإرهاب. وتاريخ الحركــات الاجتماعيــة التي تعبر عن الذبول، وتصبح مجرد حركة رافــضة متمــردة يــزخم الحياة السياسية في بلدان العالم. ألا تذكرنا الشخصية المــسلمة فــي داخل الجماعة كما فلسف لها المؤلف شخصيات الفوضــويين الــذين احتلوا مركز البطولة في قصص دستوفيــسكي؟ ألا تــذكرنا بأشــكال الرفض الأخرى للمجتمع الحديث قوة غاشــمة للفــرد علــى طريقــة نيتشه، أو تحطيما للفرد انتقاما من المجموعة، تحطيمه الانتحــار او السلبية أو ممارسة الاغتيال، برفض الالتزام أو بالهروب إلــى عــالم المخدرات؟

مملكة الله في الأرض... والتمييز الطبقي

عندما يحتم القدر الاجتماعي على طبقة بالزوال فإنها تقطع صلتها بمنجزات الإنسان فتعمل على حبس الخلق والإبداع أن كانت لها سيطرة، وتشيع الحقد والاضطراب والتخريب أن كانت تسحقها مراكز النفوذ، ولا نفوذ لها. وتلك كانت دائما القاعدة الاجتماعية لحركة الإخوان المسلمين، وعندما تنحسر هذه القاعدة يصبح اليأس هو السائد والفكر الغامض المضطرب هو المسيطر وهذان عاملان يقودان أبدا لتخريب القيم المعنوية والأدبية: إلى تكوين الشخصية الإرهابية.

ومن هذه القاعدة الاجتماعية المنحسرة يصدر الكاتب رأيه في القضايا المعاصرة التي يواجهها إنسان القرن العشرين، فتبدو آراؤه غريبة ضائعة بين شقي المعرفة في مجتمعاتنا: التعميم الذي تمتلكه القوى صاحبة الفراغ والقدرة على التفكير، والعمل الذي تفجره تلك الطبقات الاجتماعية اللصيقة بالإنتاج.

فالتحدي الذي تواجهه مجتمعاتنا المتخلفة، والصراع الاجتماعي العنيف الناشب في بلادنا العربية حول أفضل المجتمعات لها حيث تلبي حاجياتها الروحية والمادية يواجهه الكاتب بشعار لا يستطيع له تفصيلا:]قيام مملكة الله في الأرض. ولكن ما هي هذه المملكة؟..

أهي نظام الخلافة والإمامة؟ الملكية أو الجمهورية؟.. الملكية العامة لوسائل الانتاج أو ملكية الأفراد لها وحرمان لأغلبية المسلمين منذ انتصار الرسالة وحقيقة الوحدانية، هذا أمر لا يحتاج إلى نبي جديد فقد ختمت الرسالة. ولكن المسلمين ظلوا يجربون وينشئون النظام السياسي وفق مصالح الأمة، وهم اليوم مواجهون بمشاكل التسلط الأجنبي في بعض بلادهم، ومشاكل التخلف الاقتصادي في كل بلادهم. لقد انتهى الأساس الاجتماعي الذي قامت عليه عدالة توزيع الإنتاج في الفترة الأولى لنهوض الدعوة الإسلامية لنهوض الدعوة الاسلامية عندما كان المسلمون جندا في جيش يحمل دعوة كبرى للتطور، وقام النظام الاقتصادي في تلك المرحلة على أساس الجهاد. فعثمان بن عفان يهب ماله لجيش المسلمين، وتوزيع مكاسب الحرب على قدم المساواة بين المجاهدين لإقامة أولادهم لا فرق بين قائد وجندي وحلت محل هذا الأساس فروق في الملكية، واختلال في توزيع عائد الإنتاج. معظم البلاد الإسلامية أو كلها تعاني من استغلال رأس المال الأجنبي فهي منهوبة كأمم، وظهرت في باطن المجتمع تقسيمات جديدة فهناك الملوك والرأسماليون وكبار ملاك الأراضي وهناك المعدمون. وكل مفكر مواجه بالقول القاطع والبيان الناصع حول هذه القضايا، ولا تكفي الشعارات الغامضة. فالمساواة وعدالة التوزيع في عائد الإنتاج هما روح الدعوة الإسلامية في نهضتها، وهذه المساواة وتلك العدالة تلحان في التطبيق في ظروف نمت فيها

الثروة الاجتماعية، وتزايدت قدرات الناس على انتزاع طيبات الحياة وخيراتها من مادتها الخام. هذا هو تحدي أيامنا المعاصرة ولكن الكاتب يهرب منه بحديث غامض لا يفصله، ولا يغني الفكر الإسلامي شيئا بتطبيق حاجته: المساواة والعدالة على مشاكل مجتمع القرن العشرين. ولكن الغموض لا يبقى أمام القضايا الملحة فيضطر الكاتب إلى إظهار ما أخفى طويلا حول المجتمع الفاضل الذي على الناس السعي له فهو يقول في معرض هجومه على الاشتراكية التي تحرم حسب تصوره الإنسان من "حرية التعبير عن فرديته وهي من أخص خصائص إنسانيته، هذه الفردية التي تتجلى في الملكية الفردية: وفي اختيار نوع العمل والتخصص" صفحة (١١١) وهكذا يسقط الستار عن الغموض فحديث الملكية الفردية ما عاد يخدع أحد. الخيار للناس بين الاشتراكية ونظم التخلف الرأسمالي، بين نظام ملكية الأغلبيةلوسائل الإنتاج وتجريد الأقلية منها. وبين نظام يرد للأغلبية فرديتها واحترامها لذواتها وقد حرمت منه نتيجة لتجردها من الملكية- وبين النظام الرأسمالي ونظم التخلف الأخرى القائمة على ملكية الأقلية لوسائل الإنتاج وحرمان الأغلبية منها بالنظام القائم على حرية نمو الفردية لقلة من الأثرياء وسحق فردية الأغلبية، وعندما يتكلم رجل عن الملكية الفردية في معرض الحديث عن النظام الفاضل فالكل يدرك في عالم اليوم انه يقف إلى صف نظام الملكية الطبقية.

ليس هذا التصور غريبا على الكاتب فهو عندما يحدد المجتمع الجاهلي الذي على من يتبعون معالم طريقة رفضه وتدميره يذكر المجتمع الاشتراكي كنظام اجتماعي. والمجتمع الوثني الذي يعتبره قائما في الهند واليابان وأفريقيا ثم المجتمعات اليهودية والنصرانية لأنها مشركة بصرف النظر عن سطحية هذا التقسيم وفساده ومجافاته لواقع الأمر فانه يحق لنا أن نتساءل، وما موقف الإسلام كما يفسره المؤلف من المجتمع الرأسمالي؟ من المجتمعات الملكية شبه الإقطاعية؟ ألا يحق للقارئ أن يفهم أن المؤلف يعني بالمجتمع النصراني النظام الرأسمالي الغربي، وانه لا يرفضه كنظام اجتماعي بل يقره وهو المدافع من "الملكية الفردية" ويرفضه فقط لأن أعضاءه مسيحيون؟

والأمر لا يحتاج إلى بحث نظري عميق، يكفي القول إن اتباع المؤلف يحددون التزامهم في الصراع الناشب بين عالمنا العربي والإسلامي إلى جانب التخلف والنظم التي تمثلها، ويتزايد نشاطهم ضد البلدان التي تستهدف التفكير الاشتراكي وضد القوى الشعبية الكادحة التي تناضل لتضع بلادها على طريق التقدم. بل يمكننا القول بأنهم فلاسفة القوى الرجعية في مراحل انقراضها حين لم يعد لها من عاصم غير اللجوء إلى العاطفة الدينية يحرفونها عن القيم التي سادت على عهد الرسالة، ويخضعونها لمصالح الطبقات الممتلكة، ويضعون بينها وبين العلم والرشد سياجا منيعا.

كيف يفسر... سيد قطب الاستعمار؟

كما يتصدى المؤلف لقضية المجتمع الفاضل في غموض أولا ثم ينكشف المستور ويظهر دفاعه عن النظام الرأسمالي، كذلك يتعرض إلى قضايا معاصرة كثيرة بنفس الأسلوب: ألفاظ ضخمة يبدو عليها العمق ولكنها لا تقوى على البقاء أمام أية محاولة ذكية من جانب القارئ للوصول لمدلولاتها فالاستعمار الذي يواجه عالمنا العربي، وعالمنا الثالث بمشاكل لا حصر لها والذي أصبح الاهتمام به سمة من سمات عصرنا قصد الخلاص النهائي منه وتحرير الإنسان، والذي لا يمكن أن نتحدث عن حرية الأفراد وقيام "المجتمع الإسلامي" إلا بنهايته. يفسره الكاتب على النحو التالي: "نحن نشهد نموذجا من تلويح الراية في محاولة الصليبية العالمية اليوم أن تحدثنا عن حقيقة المعركة، وأن تزور التاريخ فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستارا للاستعمار.. كلا.. إنما كان الاستعمار الذي جاء متأخرا هو الستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السفور كما كانت في القرون الوسطى الخ" (صفحة ٢٢٣).

الاستعمار إذا في نظره ظاهرة من ورائها المسيحية، والصراع الناشب في عالم اليوم بين العقائد الدينية. لنصرف النظر عن فساد التفكير التاريخي القائم على تفسير المظاهر بهذه الطريقة التي لا تقود إلى شيء غير الحيرة والارتباك، ولنذهب ابعد من ذلك هل حقا إن

منشأ الاستعمار والدافع له هو التوسع الديني؟ لنقرر في الأول حقيقة بسيطة وهي إن المسيحية دين قديم وإنما ظهرت قبل الاستعمار، وإذا كان المستعمرون قد استغلوا الكنيسة كمقدمة لعدوانهم على الكثير من البلدان المتخلفة فلا يعني ذلك أن هدف الاستعمار هو نشر المسيحية. المجتمع المسيحي في أوروبا يعاني ذاته من الاستغلال والبلدان المتخلفة التي قبلت المسيحية دينا تعاني أيضا من الاستغلال لا فرق بينها وبين البلدان الإسلامية أو التي تتبع ديانات أخرى. وحتى في المظاهر العابرة كيف يستطيع المؤلف تفسير الحقد الغربي على ابن الكنيسة كوامي نكروما، أو باتريس لوممبا (كيف يفسر الرضى الذي يتمتع به حامي الحرمين من قبل الغرب إن كان الاستعمار هو حقا أداة للحرب الدينية ووسيلتها؟

لقد أصبحت فكرا مشاعا حقيقة الاستعمار بوصفه ظاهرة اجتماعية تعبر عن التوسع الرأسمالي وسيطرة الاحتكار، ما عاد من الممكن تشويه هذا الفهم العلمي في أذهان الناس، من قبل كانت هذه الحقيقة ملكا لحركة الطبقة العاملة وحدها، والفكر الماركسي اكتشفها ف.أ. لينين في حقيقة تحول رأس المال إلى مرحلة الاحتكار أما اليوم فكما ذكرت أصبحت حقيقة مشاعة مستقرة. لا يجهلها إلا من جهل الاقتصاد وعلوم المجتمع، والمؤلف لا يمكن أن يكون جاهلا بحقيقة الاستعمار، ولكن تفسيره الغريب يمشي مع منطق أفكاره ومن الدور الذي حدده لجماعته وسط البلدان العربية الإسلامية، فالثورة ضد

الاستعمار وهي تدرك حقيقة شرهة: حقيقة الاستغلال الرأسمالي تصل في أيامنا المعاصرة إلى مفترق الطرق إما استكمال الثـورة الوطنيـة بالثورة الاجتماعية وخلق مجتمع جديد يرفض الرأسمالية، أو التوقف وحبس التغيير الاجتماعي وبالتالي فقدان الاستقلال الوطني والمؤلـف كما أشرنا من قبل كاره للثورة الاجتماعية فالإستعمار إذا ليس قهـرا اقتصاديا في نظره ولا قوميا بل هو قهر ديني. جهل بالإقتصاد، بعلـم الإجتماع وبحقيقة المسيحية نفسها، إن إخفاء الأسـاس الرأسـمالي للإستعمار يستهدف "تغبيش" الوعي الطبقي لدى الجمـاهير الكادحـة: فإذا كان الكل مسلمين فلا معنى في نظر المؤلف للصراع الإجتماعي، لا فرق بين غني وفقير ولا مبرر للتطور الإشتراكي وهـذا هـو لـب دعوة الإخوان المسلمين. فالملك فيصل، الممثل للإستغلال الرأسـمالي والخاضع للإحتكار الأجنبي خير من عبد الناصر الذي يعبر عن أماني الكادحين العرب ضد الإستغلال والإحتكار. لماذا؟ لأن الأول في نظرهم داعية للإسلام والثاني لا يعبر عن الشخصية الإسلامية؟

الحضارة والعلم في نظر المؤلف

يعرض المؤلف أيضا لقضية التغيير الإجتماعي وسير تطور المجتمعات فيخلص إلى القول: "لا يتوقف قيام الحضارة بطريقة الإسلام ومنهجه على درجة معينة من التقدم الصناعي والإقتصادي والعلمي وإن كانت الحضارة حين تقوم تستخدم هذا التقدم- عند وجوده- وتدفعه إلى الأمام دفعا وترفع أهدافه".

الحضارة إذا في نظر المؤلف شيء يختلف عن التقدم الصناعي والإقتصادي والعلمي، ولكن ما هي إن لم تكن جماع تجربة الإنسان وعمله في الطبيعة، وفي اكتشاف ذاته وقوانين تطوره الباطني؟..

كيف يستطيع المؤلف أن يفسر حقيقة وجود المجتمعات الوثنية والمقدسة للسحر في مواقع التخلف حيث يعجز الإنسان عن العمل المثمر في الطبيعة، وحيث ينخفض مستوى الإنتاج؟ صحيح إن هناك مجتمعات سارت شوطا بعيدا في مضمار التقدم الصناعي العلمي ولكنها تحبس نمو الإنسان وتحرمه من الحياة الروحية الغنية، وبالطبع لا يمكن الحديث عن "حضارة" تلك المجتمعات، ولكن الإنسان ذات واحدة، ونمو مداركه، وحياته الروحية، وعمله المثمر بين خيرات الطبيعة وترويضه لقوانينها- كل هذا العمل المبدع هو ما يسمى بالحضارة.

من الممكن في نظر المؤلف التغاضي عن التخلف الذي تعيشه البلاد الإسلامية والبحث عن أسبابه ودوافعه وفي نفس الوقت بعث الحضارة الإسلامية. لنأخذ من الحضارة الإسلامية حقيقتها: إقرار الشهادتين، وهي كما يرى المؤلف تقر المالكية لله وحده. كيف يستقيم ذلك دون النظر في الأوضاع الإجتماعية التي تجعل الملكية لفئة من البشر؟... إذا كان رأس المال الأمريكاني والبريطاني يسيطر على مقدرات الشعب العربي المسلم في الجزيرة العربية، ويفقده القدرة على الحركة وحرية الإرادة كأمة فكيف يمكن الحديث إذن عن استقرار الحقيقة الإسلامية في ذلك المجتمع؟ وإذا كانت أدوات الإنتاج التي يعتمد عليها معاش المسلمين ملكا لمشائخ إقطاعيين يدعون الكهنة أو المتفرنجين من الرأسماليين فكيف يمكن الحديث عن حرية إرادة الإنسان الكادح تلك الحرية التي لا غنى عنها في إقرار الحقيقة الإسلامية الكبرى؟... إن القول بالمالكية لله وحده، ثم قبول النظام الرأسمالي أو الإقطاعي قول مردود ودعم للطاغوت وتضليل ما بعده تضليل. والجوانب الأخرى من الحضارة الإسلامية- روحية أو مادية- كلها نشأت تحت مظلة الإسلام وهو يفتح الطريق للعلم والتقدم التكنولوجي، إن البعث الروحي في عالمنا العربي لا يمكن أن يتم إلا بمعرفة أسباب النكسة، وبتهيئة الظروف لذلك البعث- وهذا أمر لا يتم بمعزل عن معالجة قضية التخلف الصناعي والإقتصادي والعلمي.

علم التغيير والحركة في المجتمع

ويقدم المؤلف تصورا سطحيا للقضية الفلسفية الخاصة بالمادية والمثالية إذ يقول: "أما حين تكون المادة- في أية صورة- هي القيمة العليا. سواء في صورة "النظرية" في التفسير الماركسي للتاريخ! أو في صورة الإنتاج المادي كما في أمريكا وأوربا وسائر المجتمعات التي تعتبر الإنتاج قيمة عليا تهدر في سبيلها القيم والخصائص الإنسانية. فإن هذا المجتمع يكون مجتمعا متخلفا أو بالمصطلح الإسلامي مجتمعا جاهليا".

لا أدري كيف سقط الكاتب إلى هذا الدرك من العامية فيربط بين المادية والتاريخية والإنتاج المادي، ويتصور المادية التاريخية على تلك الصورة السوقية.

لقد ظل علم التاريخ- وما زال بين أوساط المفكرين البورجوازيين- متاهة لا استقرار يدخل باب العلم. ظل السؤال الجوهري في التاريخ حائرا لا جواب عليه: ما سر الحركة والتغير في المجتمعات البشرية؟ وقد أسهم علماء التاريخ الإجلاء في الجواب على السؤال اقترابا من العلم أو بعدا عنه حسب ظروفهم التاريخية، والمستوى العام للمعرفة، والنظرة السائدة للمجتمع. ومما لا شك فيه أن المؤرخ الإسلامي ابن خلدون اقترب بالتاريخ خطوات نحو العلم

فقرر دور الإنتاج البشري في دفع التاريخ علميا: من فسروه ماديا المادية التاريخية وغير الماديين ويعتبر هذا العالم في مقدمة من فسروا التاريخ علميا: من فسروه ماديا. المادية التاريخية هي علم التغيير والحركة في المجتمع، وهو ينبني على اكتشاف العلاقة بين الإنتاج وعلاقاته، بين عمل الإنسان في الطبيعة وعمله الإجتماعي. وإذا كان علم التاريخ يرى أن الأساس الذي تستند عليه المجتمعات هو في قاعدة إنتاجها فلا يعني هذا أن الفكرة لا تؤثر على المجتمع. العكس صحيح فالفكرة عندما تسيطر على الناس تصبح قوة مادية محركة للتاريخ. ولكن النقطة هي: كيف يفسر التاريخ حتى يصل الإنسان إلى قوانينه فيدركها ويحقق بذلك حرية إرادته؟ أيفسر بالنظر في الأفكار الإجتماعية المتجددة أبدا، ثم من أين نشأت الأفكار الإجتماعية السائدة، وما الذي يغيرها من فترة لأخرى؟

وما أستقر التاريخ كعلم إلا بعد اكتشاف قوانين الحركة والتغيير في المجتمع بالتفسير المادي للتاريخ.

ما العلاقة إذن بين المادية التاريخية والإنتاج المادي في المجتمع الرأسمالي- تلك العلاقة التي يعلن من فوقها علم التاريخ؟... أولا: الإنتاج المادي موجود في كل المجتمعات ولم تعرف حضارة حرمت من عمل الإنسان في الطبيعة للوصول للخيرات المادية. ثانيا: إن اللعنة في المجتمعات الغربية والأمريكية ليست في الإنتاج المادي: فالخيرات ليست لعنة بل هي مصدر سعادة للبشر في الإنتاج المادي:

فالخيرات ليست لعنة بل هي مصدر سعادة للبشر وتحررهم من الفاقة والعوز ولكن لعنة المجتمعات الرأسمالية هي في توزيع الإنتاج على المجتمع، ذلك التوزيع الذي من شأنه أن يخلق طبقات ممتازة وأخرى كادحة، ولوجود هذا الانقسام الطبقي في المجتمع يوجه الإنتاج الإنساني السامي نحو غاية رئيسية هي الربح. يصبح الربح والمزيد منه هو القيمة السائدة في المجتمع، والعمل الإنساني النبيل في تغيير الطبيعة، وفي ابتداع القيم الفنية والجماعية- كل هذه المنجزات الإنسانية تصبح سلعة. والإنسان مبدع القيم المادية ينفصل عن الآلة التي ابتدعها، يصبح غريبا عنها ثم عبدا لها، تلك هي لعنة المجتمع الرأسمالي: إهدار القيم الإنسانية في سبيل الربح، وتقييد عمل الإنسان في الطبيعة وجمع خيراتها- أي الإنتاج المادي- بقيودالربح الضيقة.

إلا أن مقارنات المؤلف بعيدة عن الحقيقة بل غارقة حتى الآذنين بين الجهل بالتاريخ وحركة التغيير في المجتمع. وتلك كانت مأساة حركة الاخوان المسلمين- كحركة مجموعة أفكار، ولكنها عجزت عن فهم سير حركة التاريخ فانحسر سندها الإجتماعي وواجهت الفشل في منبعها بمصر وتحولت إلى جماعة إرهابية إذ عجزت أن تكون أفكارها معبرة عن قوى إجتماعية ذات وزن في الصراع من أجل التطور.

إخضاع الفن... للدعوة السياسية المباشرة

يواجه المؤلف قضية الفن والعلم في إطار المجتمع الذي أحكم إغلاقه واكمل اعتزاله.. فقضية الفن- وهي من أكثر ،وهي كثر القضايا الفلسفية تعقيدا،تحل في نظره بكل بساطة. ما تقبله الجماعة التي حدد معالمها ورسم قسماتها هو النشاط الفني المفيد والمسموح به وعدا ذلك فبدعة فالنشاط الفني اذا بوصفه هادفا لاكتشاف الذات الإنسانية وثرواتها، وقوانينها الباطنية لا يقبل على أساس من المؤلف: وترفض الفكرة الإنسانية المتصلة عبر الأحقاب من ورائه. والإنسان يعجب لهذه الدعوة الغريبة- فالنشاط الفني بين العرب في أخص خصائصه: وتعني الشعر حبل متصل منذ العهود الجاهلية وعبر الحضارة الإسلامية بأسرها، ما توقف ولكنه توقف لكنه تجددمعتمدا على خصائصه وعلى كثير من الأخيلة المتصلة . إن الإنسان يتأمل ويراقب أفكاره، يبهره الجمال يتقزز من من القبح ..الخ، ولكن هناك حقا ما يجمع بين الذات الانسانية : تكوين الجهاز العصبي، ومعرفة إنسانية مشتركة. الحضارة الإسلامية وما- حملت من معرفة فنية وعلمية بهرت العالم المسيحي وأيقظته من سباته- ألهبت عاطفته واستقرت في معارفه، والمعرفة اليونانية ألهمت علماء الإسلام علماء اليونان وشيدت تؤثر مرة أخرى على الفكر المفتوح في العالم الإسلامي. أمن قبيل الصدفة أن يهتز الإنسان بذاته للإنتاج الفني الجيد

أيا كان مصدره- من أفريقيا الوثنية، من العالم الإسلامي، ومن العالم المسيحي؟ ألا يدل ذلك على أن الإنسان يقترب من قيم الجمال كإنسان، كإبن لتاريخ البشريةألا يدل ذلك على آنهبالإضافة إلى عوامل تخص المجتمعات المختلفة توجد قوانين باطنية لتطور الفن ونموه، تشكل الأثر الفني ولا ترتبط مباشرة بالقاعدة التي تفرق بين مجتمع والآخر؟

إن التغاضي عن حقيقة الذات الإنسانية وهي تكتشف ذاتها، والتغاضي عن قوانين التطور الباطني للفن يؤدي إلى عقم الإنتاج الفني، وإخضاع الفن إلى أهداف سياسية مباشرة مثل دعوة الإخوان المسلمين فيؤدي إلى قتله.

وعندما يقترب المؤلف من قضية العلم يظهر إفلاس فكره، فهو يعتبر العلوم نتاج المجتمع الجاهلي، ولكنه يواجه بحقيقة لا قبل له بالهرب منها: كيف يمكن بناء مجتمع مسلم متحضر من غير العلم؟ بل كيف يمكن تحطيم المجتمع (الجاهلي)- أي المجتمع القائم حسب تصوره- دون العلم وإجادة استخدامه؟.. والحل سهل في نظر المؤلف كما هو حاله في معالم طريقه إزاء كل القضايا الإجتماعية والإنسانية المعقدة. يباح للمسلم تلقي العلوم الطبيعية الأوروبية (النصرانية- أو الإلحادية) من طب وكيمياء وطبيعة وهندسة.. الخ ولكن يمنع من تلقى البشريات لأنها- لا تلائم الإسلام. وهذا بالطبع جهل بالعلم الحديث، لم يعد من الممكن هذا الفصل الغريب بين شقي العلم

فالفلسفة وهي في المستوى المقدم للتقييم تنمو وتتطور وفق مكتشفات العلم وفي نفس الوقت تؤثر في العلم ومنهجه، فاكتشاف قوانين الجاذبية والحركة الجبرية للمادية وقعت في إطار الفلسفة القدرية التي كانت المحرك الفكري وراء الإنتاج الفلسفي في القرن السابع عشر والثامن عشر، وتحت تأثير الفلسفة الميكانيكية وضع العلم في إطار حدد انطلاقه. بالولوج إلى باطن المادة واكتشاف حركتها تصل الفلسفة والنظرية البشرية إلى مستويات أعلى- وهكذا، ما عاد الحديث عن العلوم الطبيعية المجردة أمرا ممكنا، كما لم يعد من المعقول الحديث عن الفلسفة المجردة واعتبارها علم العلوم، وهكذا سائر العلوم البشرية: تتأثر بالعلوم الطبيعية وتؤثر فيها- والإنفصام بينهما يؤدي إلى اختلال وإلى عقم المعرفة من ناحيتها.

نقد وتحليل

نظرة على كتابين:

- نحن والحضارة الغربية لأبو الأعلى المودودي
- جاهلية القرن العشرين لمحمد قطب

أتاحت لي ظروف الفراغ الجبري أن أواصل النظر في المؤلفات التي تشكل زاد حركة الإخوان المسلمين الفكري علـى أيـام محنتهـا الراهنة فقرأت كتاب أبي الأعلى المودودي "نحن والحضارة الغربيـة" وكذلك كتاب محمد قطب (جاهلية القرن العشرين) ولو كنـت أدركـت النظر في هذين الكتابين أثناء قراءتي لكتاب سيد قطـب "معـالم فـي الطريق" لكنت أجملتها كلها في تعليق واحد فأرحت نفـسي وأرحـت القراء من المشقة، إذ أنها جميعا يصل بينها حبل واحد مـن التفكيـر وكان مؤلفوها ينظرون إلى بعضهم فكرة وتعبيرا. فليعذرني القارئ إذ أقدم له كتابين في مقالة واحدة فلا لزوم لمكرور القول ولا فائدة مـن وراء الإطالة..

رسالة أبي الأعلى المودودي عبارة عن مجموعة مـن مقـالات أنشأها في الثلاثينيات من هذا القرن، تقع في ثلاثمائـة صـفحة مـن الحجم المتوسط نشرتها دار الفكر بدمشق. يبدو إن هذا النشر المتأخر في العالم العربي جزء من الحملة الفكريـة لـسند دعـوة الإخـوان المسلمين في وجه القضايا المعاصرة والمعقدة التـي تواجههـا تلـك الدعوة. وللكاتب مكانة مرموقة بين دعاة الإخوان المـسلمين علـى أيامنا هذه فقد اعترف سيد قطب بالنظر إليه وهـو ينـشئ رسـائله الحديثة التي توجها بمعالم طريقه التي تعتبر قمة الفكـر عنـد تلـك الجماعة والرسالة في ذاتها لا تحوى لمن قرأ لسيد قطب شيئا جديـدا

إذ آن الآخير لخص معظم ما تحوي من آفكار في معالمه: رفضا تاما للمجتمعباعتباره جاهلية، ودعوة لاستعلاء الجماعة المسلمة وفرضها الوصاية على المسلمين الآخرين، ونظرية المعرفة ترفض الرشد وتفضل ما بين العقل والعاطفة الخ..

إن القارئ الذكي يكاد يلمح المؤثرات التي كتب تحت ضغطها المودودي رسالته وقررت له في نهاية الأمر النتائج التي توصل إليها.. فالكاتب مسلم هندي يطلع من أقلية تعتنق الإسلام وسحقها في ذات الوقت وضع القومية الهندوكية الكبيرة، وقد فشلت محاولات الوطنية الهندية وقتها في صهر سكان الهند في بوتقتها، كانت الدعوة الإسلامية بين تلك الأقلية لا تمثل سيادة العقيدة وحسب بل كانت بمثابة الجدار لكيان تلك الأقلية ولبقائها متميزة عن القومية الكبرى. ومن هذا المنطلق اختلطت كثير من القيم في أذهان مفكري المسلمين بينهم فعارضوا الوطنية وكأنها دعوة القومية الكبرى، واتجه آخرون نحو الوجود البريطاني في الهند ينشدون منه الحماية والأمن.. يقول الكاتب وهو يعرض لأخطاء المزج بين العلم والثقافة الإسلامية كما يتصورها "ستكون خاتمة المطاف إن ينقسم طلبتكم إلى فئات ثلاث: أولاها أولئك الذين ستتغلب عليهم الطريقة الإفرنجية سواء أكانت في صورة تقليد الإنكليز أم في صورة الوطنية الهندية أم في صورة الجنوح إلى الشيوعية الإلحادية (صفحة ٢٦١).

وقد أدى هذا التصور للوطنية بوصفها مجافية للإسلام إلى اتجاهات سياسية خاطئة بين كبار العلماء المسلمين في الهند، فالكثير منهم وقف معاررضا لحركة الحرية الوطنيةمما أدى إلى تقسيم ذلك الشعب الواحد إلى دولتين تناصبان بعضهما العداء.. والكاتب ينزلق في الخطأ حين انشأ رسالته في الثلاثينيات وشعب الهند يشن معارك حاسمة من أجل الحرية الوطنية فيقدم دعوة الإسلام لخدمة المستعمرين يقول في سند دعوته لنشر التعليم الإسلامي في المعاهد: "ولعلك إن تقول: كل هذا صحيح ولكنه لن يسمح بذلك الحاكم الإنكليزي. وهذا صحيح إلى حد ما. ولكن ينبغي أن نطرح عليه السؤال: أي الرجلين تؤثر؟ المسلم الخالص أم الشيوعي الخالص؟.. فاعلم انه لا يمكن أن يحارب تيار الشيوعية الجارف لا في صفوف المسلمين وحدهم بل في جميع الهند بالدعاية الفارغة وبرامج للريفيين وإنما هذا التيار لا يستطيع أن تدفعه إلا قوة واحدة- هي قوة الإسلام".

ولكن تاريخ تلك الفترة في الهند يؤكد أن القضية ما كانت التغيير الإجتماعي بل قضية الحرية الوطنية. تصوير الوضع على غير ذلك كان يضر بقضية الحرية كما أنه يؤدي إلى تلويث اسم الإسلام وتنكيس راياته خدمة للقوى الأجنبية ذات المصلحة في إشاعة الفرقة بين الشعب الهندي. والخطير في هذا التشويه للإسلام إن الكاتب يعتبر الوطنية نفسها فكرة الحادية ناشئة من التصور الغربي للكيان

الإجتماعي، ويكشف عن نفسه النقاب الشفاف حيثما يهاجم الحرية الوطنية للمسلمين باسم الدين إذ يقول (وقد اخطأ من كان يظن في الماضي إن العلاج الناجح لمرض المسلمين هذا هو التعليم الغربي بالحضارة الجديدة وإصلاح الأحوال الإقتصادية ونيل الحقوق السياسية (صفحة ٢١٥).

ومرة ثانية يصدر الكاتب تقييمه للحرية السياسية عن يأسه من الظروف التي يخلقها انتصارالجديد فيرى فيها انتصارا للقومية غير المسلمة وضياعا أكيدا للمسلمين.وكأن الحماية للمسلمين تأتي من قبل الاستعمار البريطاني.

والمقارنة بين هذه الأفكار، وأفكار النهضة الإسلامية التي نشأت في مصر أو الشام مثلا أيام الحكم الاستعماري تكشف بونا شاسعًا بين المؤثرات التي أحاطت بالبيئتين الهندية والعربية. في مصر مثلًا واجه النفوذ الإستعماري شعبًا مكتمل التكوين القومي ونهض الإسلام على أسس متينة من العزة الوطنية فكان باعثوا تلك النهضة أمثال الإمامين محمد عبده وجمال الدين الأفغاني يضعون الإسلام في مكانته المشرفة قوة إلى جانب الوطنية وإلهامًا للعزة القومية لم يرد المفكرون المسلمون في مصر والشام في الفكرة الوطنية مخالفة للإسلام، بل على النقيض من ذلك رأوا في الفكرة تناسقًا مع الإسلام، وفي الحرية الوطنية والإستقلال إعلاء لكلمة الله ورسوله.

جهل بالفكر الإسلامي وصرخة يائسة

كان المودودي يعتبر أيضًا من ناحية تصوره للإسلام عن القومية التي نشأ بينها وهي التي اقتربت للإسلام في عصر انحدار الدولة الإسلامية، ولامست الحضارة الإسلامية ملامسة لم تتأثر بها تأثيرًا عميقًا. تأثرت في السطح بالمعتقدات، وبقيت فيما عدا ذلك آسنة ما أسهمت بشيء يذكر في تنمية الحضارة الإسلامية- وركبها الاضطراب حتى في ميدان الإعتقاد فذهبت وراء التشيع واختلفت نحلها وتضاربت مللها هذا يختلف أيضًا عن وضع الحضارة الإسلامية بين مصر مثلًا حيث ذهبت تلك الحضارة للأعماق واستقرت وبلغت مدى غورها بالسيطرة التامة للغة العربية، وبالإسهام النشط في إغناء تلك الحضارة من جانب العلماء الإجلاء في مصر، ومن جانب الحكام الذين دفعوا عن العالم الإسلامي الموجة الصليبية التي هددت كيانه ردحًا من الزمان.. من هذه المواقع الراسخة واجهت النهضة الإسلامية في مصر قضايا العصر التي هجمت عليه بعد الحملة الفرنسية فأثرت الفكر الإسلامي.. لقد واصلت النهضة الإسلامية سيرها في درب العلم الجديد الذي حملت مشعله من قبل وأسلمته لأوروبا ليضيء لها عصر نهضتها وما وجدت في المنهج العلمي غضاضة ولا حرجًا، ولإستقرار الحضارة الإسلامية بين جنبات الشعب المصري عقيدة ومسلكًا ولغة فقد شق المفكرون طريقهم في عالم

الإجتهاد ودعوا إلى نبذ التقليد الشكلي المتحجر وإلى إحياء علوم الدين لمواجهة العلم الحديث، وقضايا الإنسان المعاصر المتشعبة من عمله لاكتشاف قوانين الطبيعة ولاكتشاف ذاته في ميدان الفلسفة والفن.

أما دعوة المودودي فقد سلكت سبيلًا مغايرًا في ميدان الفكر، فهي ترفض رفضًا قاطعًا مواجهة قضايا العصر العلمية والعقلية بأدواتها نفسها وتتصور خطأ إن العقيدة لها مكان منفصل في إطار المعرفة لا يقترب منه العقل، ولا يدعمه الرشد، إن الكاتب يجهل الفكر الإسلامي الذي تطور وهو يضم في أحشائه حضارات اليونان وفارس والذي امتاز بالمنهج العلمي القائم على التجربة والإستقراء. لا يسع للقارئ وهو يطالع هذه الرسالة إلا أن يتساءل: إذا كان منطق الكاتب الذي يواجه منه الحضارة الغربية هو: عقيدة أو لا عقيدة، فما المشكلة أذن؟.. نستطيع أن ندير ظهورنا للعالم المعاصر بكل تقدم أصابه وأخطاء وقع فيها وتناقضات ركبته ونرفضه جملة وتفصيلا لان عقيدته تختلف عن عقيدتنا. إن المشكلة التي واجهها مفكروا الإسلام الأجلاء في العالم العربي ومصارعة قضاياه، يبدو أن الكاتب في منهجه الفكري كان يرمي إلى تقوية العقيدة بين قوميته وفي وجه الهزات التي قابلوها من قبل العالم الغربي ومن قبل النهضة الوطنية التي شملت الهند على تلك الأيام. ولكن المحافظة لا تصلح منطلقا للبعث، إذ البعث هو الهجوم والتجديد وتحريك المياه الآسنة، ومن هذه

الزاوية فإن كتاب المودودي لا يدخل ضمن الأثر الخلاق للفكر الإسلامي بل لا يسع المرء إلا أن يعتبره صرخة يأس ودعوة يكتنفها غموض من كل جوانبها. إنها دعوة يأس من الوطنية التي توهم إن قوميته تعجز أن تجد بينها مكانًا ومتنفسًا، وخوف من انتصار الجديد لأنه لا يحقق لها السيادة- كما توهم- بين القومية الكبرى الطاغية. هي صرخة بائسة من الناحية الفكرية وبعيدة عن الفكر الإسلامي الذي نما تحت العلم والتجربة الملازمة له، ومن ثم فتصورها للفكر الإسلامي سطحي يقنع بالشكل ولا ينفذ للجوهر.

ومن هذه الصرخة البائسة يجدد المودودي للعالم الإسلامي طريق الخلاص في قيام دار للإسلام على نمط المدينة الفاضلة التي دعى لها الاشتراكيون الخياليون في القرن الثامن عشر في بريطانيا، تضم حزبًا معتزلًا للحياة تقسم طبقاته على الأخوة اليعقوبيين: هذا للتبشير، وذاك للعمل الثوري وثالث لجمع المال الخ، وهذه المدينة الفاضلة يرجو الكاتب من ورائها أن تنهض بالرسالة السماوية كما نهض من قبل أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن بلا وحي منزل وقد ختم محمد صلى الله عليه وسلم النبيين ومن هذا الباب يدخل كل مدع يريد أن يكون جمعية تقوم على الطاعة العمياء ويركب الدجل والإرهاب وسيلة لتحقيق مآربه، وسخر فيها منزلة الرسول بوساطة أقزام لا يقتربون إلى شسع نعله.

يتسآءل المرء على حق: ما السبب الذي جعل الكاتبين سيد ومحمد قطب ينظران إلى مؤلفات المودودي ويغترفان من منهله وهما اللذان ينتميان إلى بيئة مختلفة ويرتكزان إلى حضارة ذات أبعاد وأعماق؟.. في رأيي السبب بسيط هين. فهما يتأثران تأثرًا شديدًا بالمودودي في وقت انحسرت فيه حركة الإخوان المسلمين في مصر وتقطعت بينها وبين المجتمع أسباب الصلة، فأصبحت حركة بائسة وصرخة حزينة لا تجد مستجيبًا إلا بين قلة من الشباب الذي لم يستطع اكتشاف ذاته في مجرى الأحداث التاريخية الكبرى التي تنفتح في مصر، وفشل في أن يحتل له مكانا بين حركة التغيير الإجتماعي الشاملة هناك. بين مواقع العقم الفكري واليأس من المستقبل يلتقي الكتاب الثلاثة في ميادين الفلسفة والسياسة والفن الخ.. يرفض الكاتبان الأخيران الوطنية وقد أصبحت بالنسبة لهما مرادفا لحركة التغيير الإجتماعي كما رفض من قبل المودودي الوطنية لأنها كانت تعني انتصارا أيضا للقومية الهندوكية، يتمرد الكتاب الثلاثة على المجتمع بأسره ويعتبرونه جاهليا لتصورات لا تمت لنظرية المعرفة الإسلامية في شيء، يدعون إلى قيام حزب مستقل يتخذ الأساليب الفاشية من طاعة عمياء، إلى استعمال العنف طريقا لتحقيق البعث الإسلامي كما يتوهمون.

وما قرأت كتابا ندمت على ضياع وقتي فيه كما ندمت على قراءة كتاب محمد قطب "جاهلية القرن العشرين" فعلى الرغم من أن

الكتاب يقع في أكثر من خمسين وثلاثمائة صفحة من الحجم الكبير إلا أنه لا يشتمل على فكرة واحدة جادة ولا يعرض رأيا واحدا يثير الإهتمام، بل يكاد يكون مجموعة من الهتافات والألفاظ الصارخة في أثارتها. وكيف بالله تعالج مشاكل القرن العشرين- هذا القرن الجرئ الذي يحمل في طياته حياة زاخرة من التناقضات، والذي يقف فيه الإنسان على عتبة تغيير شامل بين الطبيعة وبين تكوين النفس البشرية- بالهتافات والصراخ وترديد المسلمات؟.. والطريف في طريقة معالجة الكاتب لمشاكل القرن العشرين ضيق صدره، واعتباره القارئ منقادا لمسلماته: فعندما يظن انه اقنع القارئ وقد طوف به في قفزات على اعقد المشاكل- مشاكل التصور، والسلوك والسياسة والإقتصاد والإجتماع والأخلاق والجنس والفن كل هذا في أقل من مائتي صفحة- يصبح في قناعة ورضى إن القرن العشرين فاسد في كل شيء.. "يلعن ابوكي بلد". اقتنعنا ورضينا؟.

لنأخذ مثلا رأيه في الفن فهو يعتبره جاهليا في الغرب ووثنيا لأنه تأثر بالفن اليوناني الذي دعى للتمرد على الآلهة، والذي أبرز الجمال بين جسم الإنسان. حق أن الأدب اليوناني وخاصة المأساة كانت تعبر عن رغبة الإنسان في الخروج عن دائرة الحتمية الوثنية، ولكن ذلك كان تعبيرا عن قدرات الإنسان وتطلعه لجو نقي ولمثل أفضل. فالآلهة الوثنية في تلك المآسي كانت عنوان الشر والأثم والقسوة وكل ما يعوق انطلاق الحياة وطهارتها! وكان الإنسان

يصارع تلك العوامل منتصرا لمثل الفضيلة والخير والمحبة. آية جاهلية هذه؟.. لقد كان الصراع دائرا بين الخير والشر، وأدى إلى تمهيد الأرض للدعوات الدينية. أما النظر في جسم الإنسان واتخاذه أداة للتعبير الجميل فأمر لا ينكره إلا من جهل رسالة الفن:

الفن موضوعه الإنسان يكشف ذاته ويحوم في دروبها المختلفة المضيء منها والمظلم وإبراز الجمال في مظهر الإنسان في جوهره عمل فني حق يجعل الحياة بهيجة وغنية. ويذهب الكاتب في رأيه عن الفن إلى مدى سخيف لا يمكن لعاقل أن يحترمه، فهو يعتبر المدرسة الرومانتيكية "حركة وثنية منحرفة" لأنها لجأت إلى أحضان الطبيعة! وهذا لعمري جهل ما بعده جهل وتحقير لتلك الحركة التي دفعها أكثر الفنانين إحساسًا بالحياة وأشدهم كراهية لانهماك المجتمع الرأسمالي الجديد في المتاع المادي والابتذال وعبودية المال فلجئوا إلى الطبيعة يضعون بينها مثل الإنسان الفاضلة التي بدأت تهتز بين المجتمع الجديد... أين الوثنية هنا؟.. ما أوردت هذا المثل إلا لأوضح للقارئ كيف يقفز الكاتب فوق اكثر القضايا تعقيدا ويقدم حلا جاهزا لكل مشكلة: هذا وقتي، وذاك منحرف وآخر جاهلي.

والكاتب فوق هذا ينحدر بالموضوع إلى مستوى التفاهة حين يواجه اعمق القضايا الفكرية والفلسفية بأسلوب الوعظ انظر إليه وهو يعالج أثر أسطورة بروميثيوس على الفكر الأوروبي.

"إنها اللعنة التي صبتها في الفكر الأوروبي أسطورة بروميثيوس سارق النار".

ونعود إلى ذلك الإنسان حين تبجح وقال:

أنا أستغني عن الله!

ما صنع في حياته من آثام؟

"قال أنا أشرع لنفسي. لقد شب الإنسان عن الطوق! وكان..! وتلعقه الشيطان!"

أبهذا المنطق تعالج مشكلة المعرفة الإنسانية التي أثارتها أسطورة بروميثيوس: مشكلة التخيير الناتج عن العلم المودع عند الإنسان أو التسيير؟.. ما أسهل وأهون أكثر القضايا الإنسانية تعقيدا إذا عولجت بمثل هذا الوعظ السطحي.

لا أعتقد إن في هذا الكتاب ما يستحق الذكر أو المتابعة فمن قرأ لسيد قطب اكتفى، وحسبه جمودا وفكرا سطحيا وتعنتا ما بعده من تعنت.

نقد وتحليل

شبهات حول الإسلام لمحمد قطب

لماذا يدرس هذا الكتاب؟

لو كانت رسالة محمد قطب، "شبهات حول الإسلام" كتابا يعرض في السوق ضمن آلاف الكتب التي تزحم سوق الورق في بلادنا هــذه الأيام لما تعرضنا له بالنقد ولما ادمنا النظر فيه. فهو كسائر الرسائل التي انشاها دعاة حركة الإخوان المسلمين تدور حول فكــرة واحــدة، تبديها وتعيدها وهي فكرة "المجتمع الإسلامي" المنفصل عــن مجــرى الحركة الإنسانية العامة فــي المعرفــة وأصــول الحكــم والــسلوك الإجتماعي. ولكن لأن تصبح هذه الرسالة كتابا مدرسيا يقرر لطــلاب الشهادة الثانوية السودانية أمر خطير يحتاج إلى النظر في شــأنه، إذ هو يتصل بتربية الشباب في بلادنا اتصالا مباشرا ويلقي ظلاله علــى مفاهيم الشباب الإجتماعية والروحية، وقبل أن ننفذ إلى بــاطن هــذه الرسالة ونتعرض لما تبسط من أفكار يلزمنا أن نتساءل عن الأســباب التي جدت بوزارة التربية والتعليم للآخذ بهذه الرسالة ضمن مقررات الشهادة الثانوية، فلكي يصبح الكتاب مدرسيا يجب أن يكــون فــوق الشبهات إلى الحدود المعقولة، فنحن لا نعدم مثلا في ميــادين العلــم النظريات التي ما زالت في طور الخــصام والخــلاف ولا تقــدم مــن التاريخ إلا ما ثبتت صحته في حدود المستوى العام للمعرفة الإنسانية. وهذا أمر طبيعي حكمتــه ألا تتعــرض منــاهج التعلــيم للاضــطراب والتشويش فتسئ إلى عقول النشء وتنشر الغموض والاضطراب فــي

حياتهم العاطفية، وكتاب محمد قطب هذا يعرض لقضية ما زالت محل جدال وخصام عنيفين. ونعني قضية البعث الإسلامي في مواجهة مشاكل القرن العشرين. فالسبل في هذه المشكلة متشعبة، والآراء متعددة وما استقر لها قرار. يضاف إلى هذا أمر أكثر خطورة إذ أن هذا الجدل ما عاد جدلا أكاديميا بل أصبح نزاعا سياسيا عميق الجذور، وصل في صور من صورة إلى استعمال العنف طريقا لغلبته، وهو ليس بعيدا على أيامنا هذه من الاختلاف البارز بين بلدان الجامعة العربية. وكتاب هذا شأنه، وتلك ظروفه المحيطة به كيف يستساغ فرضه على المدارس في بلادنا؟.. هل نحن درسنا الجدل، والآراء المتشعبة حول موضوع البعث الإسلامي فقررنا وقوفنا إلى جانب مدرسة محمد قطب وأشباهه؟ أم هل قررنا من الناحية السياسية الانضمام إلى كتلة المملكة السعودية في الجامعة العربية وذهبنا ابعد من ذلك فقررنا تربية النشئ لخدمة ذلك الغرض السياسي؟.. في رأيي إن وزارة التربية والتعليم جانبها التوفيق في اختيار هذه الرسالة بين مقرارتها ومن الخير أن تعيد النظر في هذا الموضوع، فما أكثر المؤلفات التي تشرح الإسلام في حدود ما اتفق عليه علماء الإسلام، ولا تثير ضجة وجدلا ولا تعرض شبابنا للتقلب العقلي والعاطفي.

تزييف للحقائق وتجاهل للوجود الاستعماري

والكتاب في باطنه آية للاضطراب الفكري، والعجلة في إصدار الأحكام كما إن القارئ لا يحتاج إلى علم غزير ليدرك إن مؤلفه لم يدم النظر في موضوعه دراسة وتمحيصا، فهو أقرب إلى البيان السياسي المثير منه إلى الكتاب العلمي الذي ينشأ بعد دراسة وترو وموضوعية. وبهذه الصورة يتلون الكتاب وتقوى الحقائق ليصل المؤلف إلى هدفه. فأخطر القضايا التي واجهت العالم العربي على مطلع القرن العشرين وما زالت تواجهه حتى أيامنا هذه- وهي قضية الحرية الوطنية نتيجة للتسلط الإستعماري تعالج بطريقة مجافية للعلم، فالكاتب يتجاهل إن الوجود الإستعماري في هذه البقعة وخاصة في مصر واجه الوطنية والقومية وإن هدفه كان تحطيم هذه القيم وإخضاع شعوبنا لسلطاته. فحركة الشعوب العربية على أيام الخلافة "الإسلامية" بعثها التكوين القومي الجديد الذي سندته من ناحية الفكر مصادر شتى: من يقظة وانبهار لما حققه الغرب من تقدم ومن قيم جديدة لحركة الفكر، ومن نقد مرير لتسيطر باسم خلافة دينية قوامها الفساد والتجبر الخ إن حركة أحمد عرابي المستندة إلى تأييد الفلاحين المصريين في الزي العسكري أو المدني كانت تعبيرا عن الوطنية المصرية، وعن مصر المتميزة في إطار الخلافة التركية. ولهذا فمن الخطأ اعتبار الصراع بين الإستعمار استعمل من الأدوات ما يدخل

الوهن بين تلك الشعوب. وأتخذ من وسائل الفكر ما يباعد بين الشعوب العربية ومصادر معرفتها وحضارتها، ولكن هذا لا يغير جوهر الإستعمار وطبيعته بوصفه نظاما للإستغلال الإقتصادي، ولقهر الأمم والشعوب وحبس النمو الوطني. ولا يغير من حقيقة إن الشعوب العربية قاومت الوجود الإستعماري وما زالت تقاومه في الغالب تحت راية الوطنية والقومية. والخطير في تفكير المؤلف هو ما يمكن أن يؤدي إليه هذا الخلط من اضطراب. انصراف عن مراكز قوة المستعمرين في منطقتنا فتبقى آمنة ونحن غارقون في لجاج لا قرار له.. يتمثل هذا الخطر فيما انزلق إليه المؤلف فيما بعد.. فالخطأ بدأ صغيرا في رسالته موضوع الحديث الآن وفحش في رسالته الثانية "جاهلية القرن العشرين" عندما أعتبر الوطنية وحركة القومية العربية جاهلية إلحادا فانحدر من الوجهة العلمية إلى مواقع النفوذ الأجنبي الذي يحارب تلك الأفكار، ومن الوجهة النظرية إلى دوامة من المغالطات التي لا يسندها واقع ولا منطق.

لقد أدى هذا التصور كما ذكرت إلى سلسلة من الأخطار النظرية بل يمكننا القول بأن المؤلف وهو حبيس مسلماته الخاطئة هبط إلى مستوى الانطلاق في الفكر وإلى الخروج على إنسانية المعرفة، فالحضارة الإغريقية وما أنجزته من معرفة إنسانية خاصة بين ملاحمها وفي مسرحها تعتبر أمرا خبيثالأنها تصور العلاقة بين البشر والآلهة الوثنية علاقة خصام وصراع... وتلك الروح الخبيثة ما تزال

في العقل الباطن.. الأوربي والغربي عامة، تتبدى حينا في بعض تعبيراتهم مثل "قهر الإنسان للطبيعة" الخ وهذا تقييم خاطئ لتلك الحضارة وجوانبها التي كانت تعبر عن رغبة الإنسان الذي بدأ يدرك ذاته للتحرر من الأصنام وحتمية إرادتها التي تجثم على صدر الإنسان وتحرمه من التصرف. وما كان ذلك اعتباطا أو تمردا على فكرة "الدين" كما خيل للمؤلف بل تمهيدا لفكرة الوحدانية والأديان السماوية التي تقر قدرة الإنسان على الحركة والتصرف وتنيط به المشي في مناكب الأرض والسعي و "كل أمرئ بما كسب رهين". والوثنية الصماء خلافا للأديان السماوية تقر الحتمية التي لا فكاك من أسرها، وتعوق نمو الإنسان الروحي والفكري، وما أندثر خبرها في معظم أرجاء المعمورة مصادفة فهي في أبسط صورها تعوق السعي وعمل الإنسان في ثمار الطبيعة وبين مظاهرها وقوانينها المختلفة. والكاتب لا يقوى كثيرا على السير في هذا الطريق المقفول لأنه يؤدي في نهاية الأمر إلى إنكار فلسفة الأديان السماوية وإلى الإبتعاد بصورة خاصة عن مفاهيم الدعوة الإسلامية. فهو ينتكس على دعوته حينما يقول: "والحياة لا يمكن أن تتقدم، والبشرية لا يمكن أن ترتفع إلا حين تتخلص من ضغط الضرورة، لتعمل في الميدان الطليق سواء كان عملها علما ييسر الحياة، أو فناء يجملها، أو عقيدة ترتفع بها إلى آفاق المشاعر العليا" (شبهات صفحة ١٧). وأي ضغط للضرورة أثقل من الحتمية الوثنية التي تسلب الإنسان إرادته وتتركه صورة من

الخوف الهلع في كل ما يرتئي، وما يفعل؟. وهذا الإضطراب الخطير في تفكير المؤلف نتيجة طبيعية لتصوره للعلاقة العالمية سلبا وإيجابا، ولمواجهات العصر في حدود الصدام الديني وحده. هذا الإنغلاق ترفضه وقائع الحضارة الإسلامية نفسها وما أنجزت من خدمات للفكر الإنساني فالحضارة الإغريقية التي يرفضها الكاتب رفضا قاطعا حملها الأداء الإسلامي إلى أوروبا وكان لجوانبها الإنسانية أثر حاسم في فتح الباب أمام اليقظة التي غيرت رتابة الحياة وواصلت بالبشرية السير في مدارج التقدم.

وما كان للحضارة الإسلامية أن تلعب هذا الدور الخطير في تاريخ البشرية لو إنها قامت على فلسفة الحتمية الصماء ورفضت للإنسان حريته، فالكاتب نفسه يورد الحديث الشريف: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم" وما كان لها أن تسهم في هذا المجرى الحضاري الواسع لولا إنها مفتوحة أخذت من الحضارة التي سبقتها وأعطت لمن لحقتها، فأصبحت جزءا من التراث الإنساني بأسره.

كما أشرت سابقا فالمؤلف في كتابه هذا كان يقف مضطربا من هذه القضايا: قضية الحضارة الإنسانية، وقضية المعرفة وقضايا الوطنية والقومية. ولكنه أصبح قاطعا في كتابه الآخر "جاهلية القرن العشرين" في رفضه للطبيعة الإنسانية للحضارة الإسلامية، ولنظرية المعرفة التي تجمع بين الرشد والعاطفة، وللوجود الوطني والقومي.

يبدو أن رسالته موضوع الجدل، كانت تمهيدا للتطرف، كما إنـــه مـــن المحتمل أن الإنحسار الشديد في التأييد الإجتماعي لحركـــة الإخـــوان المسلمين في مصر أدى إلى اليأس والتعصب ونظرية القلة المؤمنـــة التي وكلت إليها الإدارة السماوية "إنقاذ المـــسلمين مـــن جـــاهليتهم". ومثل هذه الأفكار تتعرض لها فـــي كثيـــر مـــن الأحـــوال الحركـــات الإجتماعية التي لا تدرك قوانين المجتمـــع، وتتحـــول مـــن حركـــات إجتماعية إلى أعمال فردية لا تربطها بالحياة رابطة، ولا تصل بينهـــا وحركة التقدم صلة.

معالجة ساذجة لقضية.. الحرب والسلام

ومن هذه المواقع أيضا يعرض المؤلف لأخطر قضايا أيامنا المعاصرة: قضية الحرب والسلم، فيقول: "لو أسترد العالم الإسلامي كيانه- وهو في طريقه إلى ذلك بإذن الله- لبطل الصراع الجبار الذي يهدد الأرض بالخراب، ولبرزت في العالم كتلة ثالثة تمسك ميزان القوة الدولية من منتصفه وتملك بموقفها أن ترجح قوة هذه الكتلة أو تلك... وإذا فالعالم في حاجة إلى إنتصار الإسلام... لأن انتصاره يريح العالم من الخوف الدائم من الحرب، والفزع المقلق للأعصاب". لا شك أن الأديان السماوية، وفي مقدمتها الإسلام الحنيف والمسيحية، تدعو للسلم والمحبة بين الناس ونبذ الحروب والدمار. والحرب اليوم تختلف عنها بالأمس إذ أصبحت نتيجة لتقدم العلم وحركة اكتشاف وسيلة الدمار الشامل الذي يهدد صلاحية الكوكب الأرضي لبقاء الحياة واستمرارها وبواعث الحرب في القرن العشرين أو على عهد الثورة الصناعية تختلف عنها في الماضي. ما عاد مجرى الزهو أو الغلبة أو "الطبيعة العدوانية" للإنسان كما يقول البعض هي الباعث بل إن الإستغلال الإقتصادي والتوسع الإستراتيجي يلعبان دورا رئيسيا في إشعال الحروب على النطاق المحلي والعالمي. فالبشرية مدعوة لإنهاء هذا النظام الذي تشكل الحرب جزءا من طبيعته، وهذا لن يتم إلا بمواصلة حركة الحرية الوطنية لنشاطها وجهادها. وفي نفس الوقت

يبعث على الإقتراب من المشاكل المعقدة الناتجة عن وجـود نظـامين عالميين. لا فرصة لتفادي الحرب العالمية بينهما إلا إذا سادت مبادئ التعايش السلمي القائمة باعتبار كامل لوجود النظامين ولحق الشعوب في تقرير مصيرها. وخطر الحرب ماثل في كل يـوم فهـل انعـدمت الفرصة في عالم اليوم لأبعاد شبحه وللسلام من قبل كـل الإنـسانية مسلمين ومسيحيين وبوذيين ولا عقيدتين ووثنيين الخ؟ قـد يختلـف الناس- وهم مختلفون- في الوسيلة لنشر السلام الدائم وفي الأنظمة الإجتماعية التي يحقق بها السلام الدائم ولكنهم لن يتفـادوا مواجهـة الخطر الماثل الذي يهدد الإنسانية قبل أن تتمكن من الإجمـاع علـى النظام الذي يجلب السلم الدائم للبشر، حق أن البشرية تتخاصم حـول أفضل النظم التي يستقر بينها السلام اشتراكية أو رأسـمالية ولكنهـا تحتاج أولا للسلم. وحديث المؤلف لا يضع في الإعتبار هذه الحقيقـة، ولا يجيب على سؤال ملح، هل من الممكن تفادي الحرب قبل سـيادة المجتمع الإسلامي على العالم؟.. والكاتب أيضا بين مشكلة لا يـدري لها حلا، لقد انتشرت الدعوة الإسلامية من الجزيرة العربيـة بهجـرة المسلمين وفتحهم لبلدان جديدة وكان الجهاد أداة عامـة فـي نـشر الدعوة الإسلامية، دفاعا عن الدين الجديد في الغالب. ولكن عالم اليوم تغير فالرقعة المكتشفة من الأرض واسعة تفصل بينها البحار والموانع الجغرافية، كما أن المكتشفات العلمية جعلت من المستحيل سيادة نظام اجتماعي أو عقيدي عن طريق الغزو والغلبة، كما أن العالم في غنـى

عن ذلك إذ أن المطبعة وأدوات النشر الأخرى قدمت لدعاة الفكر والعقيدة أداة ناجعة لتصل أفكارهم إلى كل أرجاء المعمورة وهي الوسيلة التي تحقق في عالم اليوم اختيار المناهج الفكرية، هي التي تغير العقيدة وتخلق الجو السليم لحكمة الإسلام الكبرى: "لا إكراه في الدين".

إن تغيير العقيدة الدينية ليس أمرا سهلا، بل هو من أشق وأعسر ما يواجه الإنسان من مشاكل لا يدانيه أبدا تغيير المناهج الإجتماعية والفكرية. فإذا كان صراع الفكر والأنظمة الإجتماعية لم يجد في العالم اليوم غير التعايش السلمي وسيلة للتعبير فإن صراع العقائد- وهو الأصعب والأخطر- لا يجد منفذا في الغلبة والتعصب والسيادة. فكيف للبشرية أن تحتمل البقاء حتى تتحقق دعوة الكاتب، وهي المهددة بالفناء على اختلاف عقائدها الدينية؟... عيب المؤلف هو أنه يواجه قضية معقدة مثل قضية الحرب والسلم وفي الثلث الأخير من القرن العشرين، وفي عهد الطاقة النووية واقتحام الفضاء، والتطور الكبير في الإنسان وأنه- ثقافته وتركيبه النفسي بتفكير غامض، ويوعظ أبعد ما يكون من الإلمام بهذه الحقائق المعاصرة. وبهذا فهو يسئ إلى الإسلام من حيث أراد الانتصار له، ويهبط بقضية شائكة إلى مستوى السذاجة التي تدع للرثاء. أدت إلى تصفيته، ولهذا من العسير الحديث عن خلافة عمر بن عبد العزيز كنظام اجتماعي ثابت، يصدر ما يمكن الحديث عن عمر بوصفه حاكما عادلا سار

سيرة الخلفاء الراشدين، لقد أمكن تطبيق القيم الإسلامية الخيرة في المجتمع الأول لأن مجتمع الجهاد لم يكن يسمح بالفروق بين الناس، ومصادرة الثروة كانت معبأة في خدمة المجتمع الإسلامي الجديد، والسلطة كانت قريبة من قلوب الناس وفي متناول تأثيرهم والتأثر بها. ولكن المجتمع الإسلامي وهو ينتقل من مهده حيث العلاقات الإنسانية والإجتماعية بسيطة وواحدة إلى المجتمعات الجديدة في الشام ومصر وفارس بدأ يدخل في طور جديد أكثر تعقيدا، تعددت مصادر الثروة، وتميزت السلطة الخ وما حديث عمر بن الخطاب وهو يرى مظاهر الفخامة والسلطة تحيط بمعاوية بن أبي سفيان إلا تعبيرا عن المجتمع الجديد، وعن التغيير الذي طرأ على العلاقات البسيطة السالفة. يحدث هذا الغيير في المجتمع في صدر الإسلام، فكيف لنا الآن وقد أمتد بالبلاد الإسلامية السنوات والأحقاب، وتغيرت المجتمعات من ناحية مؤسساتها الإقتصادية والثقافية، وتعقدت العلاقات بين الناس؟.. لقد أصبحت طبيعة السلطة هي التي تحدد وضع المجتمع، عادلا يكتنفه الخير أو جبارا يسحق المعدمين ويخيف الإنسان ويحبس نموه، والكاتب يعالج هذه القضية في سذاجة تثير العجب فهو يرى أن الحاكم العادل الذي يحدد سير المجتمع الإسلامي "لن يتولى سلطاته إلا بانتخاب الناس له انتخابا حرا طليقا من كل قيد، إلا قيد، الرشد والعدل والإحسان"، ولكن الإنسانية سبرت غور الوسيلة للسلطان. وفي أركان المعمورة ضجة حول صلاحيتها لقيام سلطة خيرة. صحيح أن حرية الناس في اختيار حاكمهم شرط هام لرقابة

السلطة ولكن ما هي شروط هذه الحرية؟ في مجتمع قامت فيه مراكز النفوذ المالي والإقتصادي، ومراكز التوجيه الفكري وتزايدت الضغوط على الذات وتعددت مصادرها، لا يمكن حل هذه المشكلة على تلك الصورة من البساطة، إن إنفصال الإنسان عن أدوات الإنتاج- وهو حدث إجتماعي وقع في ظروف تاريخية بعينها- أدى إلى نوع جديد من الضرورة لا مكان للحرية إلا بالعلو عليها تحقيقا بادئ الأمر ثم سيطرة توجيها في ما بعد. إن الكاتب يمر بأخطر قضية في عصرنا وقضايا أخرى لا تقل خطورة ولا يكلف نفسه مشقة البحث والفكر: فالحرية وعظ يقال، والحكم الصالح دعوات وشعارات مؤثرة. وهذا الزيف في عرض المشاكل والإقتناع بالألفاظ دون الجوهر لا يفوت أمره على القارئ المداوم للنظر في القراءة ولكنه خطر على الطلاب الذين يقبلون على القراءة المثمرة لأول مرة، فهو يلوي التفكير ويدفع بالشباب بين متاهات منهج معوج لا أمل في تقويمه.

حيرة واضطراب

يعرض الكاتب في دعوته لمشكلة العصر: أي نظــام اجتمــاعي أفضل للإنسانية؟ والكاتب يجيب على هذا الــسؤال الملــح بالــدعوة "للمجتمع الإسلامي" كما يراه وتصوره. مما لا شك فيــه أن الإســلام دعى إلى قيم رفيعة من أثره على النفس، وعدالة وإشاعة للخير بــين الناس، وكذلك دعت المسيحية لمثل تلك القيم السمحة. ولكن المشكلة التي واجهت المفكرين الإسلاميين كان لها شــقان: الــشق الخــاص بالتشريع وإمكانية تطبيقه وكيفية تطبيقــه فــي المجتمــع الإنــساني المتطور، وشق آخر يختص بالوسائل العملية لتحقيق قيم الخير التــي دعى لها الإسلام. والكاتب مضطرب وحائر في الجزء الأول فهو يدعو تارة إلى النظر في الظروف الإجتماعية المتغيــرة، والمرونــة فيمــا يختص بتطبيق التشريعات اعتبارا لكونها طبقت في ظروف اجتماعية بعينها. أي أنه لا يجرد التشريعات من ظروفها الإجتماعية ولا يعتبرها مطلقة وهكذا فسر الرق في الإسلام مثلا، فلسفته في ذلك: "إن الإسلام لم يكن دعوة نظرية وإنما كان نظاما عمليا يعــرف حاجــات النــاس الحقيقية ويعمل على تحقيقها" (صفحة ٢٦) ولكنه يعــود بــين حــين وآخر إلى الإطلاق والتجريد تحت عبارة "المجتمع المسلم" الذي يأخذه الناس جملة أو يتركونه جملة، ولا مكان للتفسير الإجتماعي للتــشريع بينه. وهذا الأضطراب قد حسمه المؤلف في رسالته الثانية "جاهليــة

القرن العشرين" إذ اعتبر كل محاولة للتوسل بالعقل والدراسة فيما يختص بالتقدم الإجتماعي جاهلية علاقتها الوحيدة بالإسلام هي الخصام والحرب.

والكاتب يبدو وكأنه يؤمن بالفكرة الكنسية القائلة بسقوط الإنسان وإنه لا نجاة له إلا بالعودة إلى فطرته الأولى، فلا مكان للتقدم ولا فائدة من السعي في مناكب الأرض ولا خير يرجى من أعمال الفكر بحثا وراء أمثل الطرق لتطبيق قيم الخير والعدالة. وهو في هذا منطقي مع تفسيره لفطرة الإنسان التي يراها غير قابلة للاستجابة والترقي، وفي هذا الإطار يعجز المؤلف عن تفسير حقيقة أن قيم الخير والعدالة التي دعى لها الإسلام الحنيف ما طبقت بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم إلا في فترة قصيرة من حكم الخلفاء، وما تمسك بها من بعد غير عمر بن عبد العزيز، أما الخليفة عمر بن عبد العزيز فقد كان حاكما متأثرا بتلك القيم ولكنه وجد نفسه وسط بحر مضطرب من الأهواء والصراعات الخفية.

افتراء على الإشتراكية والماركسية

وأخيرا فالكتاب ملئ بالأخطاء فيما يختص بالإشتراكية والنظرية الماركسية، قد يختلف الناس ويختصمون ولكن أقل ما يرجى من رجل يتصدى للكتابة وأمانة القلم أن يدرس مادته جيدا، وإلا يردد الحجج السوقية التي تكشف عن الجهل. أشك كثيرا في أن يكون المؤلف درس الإشتراكية العلمية إذ أن ما يسوق من حجج لدحضها لا تمت لهذه النظرية بصلة. فقضية المجتمع والفرد كما تراها الإشتراكية يصورها بطريقة الدعاة السوقيين مدعيا أن الإشتراكية لا تعترف بالفرد وأن الرأسمالية تؤمن بالفرد دون المجتمع، ويدعي أيضا أن الإشتراكية تقوم على الحتمية الصماء في تفسير تغير المجتمع، وإنها لا تعترف بالحاجات الروحية الخ. لا أريد أن أتعرض بالتفصيل لجهل الكاتب بالإشتراكية العلمية فلسفة ومنهجا للحكم، فالحديث عن ذلك يطول ويتشعب، ولكن المرء لا يستطيع إلا أن يعجب لوزارة التربية والتعليم التي تقدم كتابا كهذا أقل ما يوصف به عدم الأمانة لمادته، والجهل المطبق بالأفكار والنظريات التي يجادلها، ويخاصمها، فأي فائدة يجني طالب العالم من وراء هذا السراب غير الاضطراب فكرا وعاطفة؟

والكتاب ليس عرضا يناقشه الطلاب ويتفهمون معانيه ولكنه فوق ذلك كتاب امتحان فهو حتمي الأتباع والمتابعة لأفكاره ثم صبها

في ورقة الإمتحان، ونحن بذلك نقتل العقل ونميت المنطق في طلابنا بما نقدم لهم من مقررات جامدة خاطئة إذا فنحن أمام أخطاء علمية وتربوية علينا أن نجنبها الناشئة ما أمكن، وإلا ستكون قد ساهمنا مع صاحب شبهات في إغلاق العقل وتأكيد التبعية الصماء.

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

دار عـــزة للنـــشر - الخرطوم

هاتف: ٧٨٧٣٠٠ /٨٣ فاكس: ٠٠٢٤٩/٨٣٧٩٧٠٨٤ - ٠٠٢٤٩/٨٣٧٨٧٣٠

موبايل: ٠٠٢٤٩١٢٢٢٥٠٢٥٠ - ٠٠٢٤٩٩١٢١٢٧٢٩٦ - ٠٠٢٤٩٩١٢٢٠٢٩٥٩

الرقم	الكتاب	المؤلف	نوع الكتاب	السعر بالجنيه	السنة	الرقم الدولي وحفظ
١	ليل المغنين	عمر الدوش	شعر	٢٠	٢٠٠١	٥٤/٤٦٦٧
٢	السنبلاية	محجوب شريف	شعر	٢٠	٢٠٠٢	٥٤/٢٠١٨٨
٣	لوحة وطن في عيون طفلة	قاسم أبو زيد	شعر	٢٠	٢٠٠٢	٩٩٩٤٢-٥٤-٣-
٤	نار الزغاريد	أمير تاج السر	رواية	١٠	٢٠٠١	٥٤/٢٠٠١
٥	ملامح من علم الجمال	محمد عثمان مكي	فلسفة	١٠	٢٠٠٢	٥٤/٤٦٧٩
٦	The Domed Tombs of Eastern Sudan	صلاح عمر الصادق	دراسة	٢٥	٢٠٠٤	٥٤/١٦٨٢٥
٧	دفاع أمام المحاكم العسكرية	عبد الخالق محجوب	دراسة	٢٠	٢٠٠٧	٥٤/٣٩٥١
٨	الجرح والغرنوق	د. عبد الله علي إبراهيم	مسرحية	١٠	٢٠٠٤	٥٤/٣١٩
٩	الرحيل في الليل	عبد الرحيم أبو ذكرى	شعر	١٠	٢٠٠٣	٩٩٩٤٢-٥٤-٩-
١٠	الماركسية ومسألة اللغة في السودان	د. عبد الله علي إبراهيم	دراسة	٢٠	٢٠٠٣	٩٩٩٤٢-٥٤-١٠-
١١	أقاصي شاشة الإصغاء	الصادق الرضي	شعر	١٠	٢٠٠٣	٩٩٩٤٢-٥٤-١١-
١٢	حوار حول النزاعات المادية	محمد إبراهيم نقد	دراسة	٢٠	٢٠٠٣	٩٩٩٤٢-٥٤-١٢-
١٣	تاريخ الفور الاجتماعي	تاج السر عثمان الحاج	تاريخ	١٥	٢٠٠٢	٩٩٩٤٢-٥٤-١٣-
١٤	الماركسية والثقافة	قرامشي ت: الجنيد علي عمر	دراسة	١٥	٢٠٠٣	٩٩٩٤٢-٥٤-١٤-
١٥	تداعيات - الجزء الثاني	يحيى فضل الله	مقالات	٤٠	٢٠٠٢	٩٩٩٤٢-٥٤-١٥-
١٦	علاقات الأرض في السودان	محمد إبراهيم نقد	دراسة	٢٠	٢٠٠٤	٩٩٩٤٢-٥٤-١٦-
١٧	آراء وأفكار حول فلسفة الأخوان المسلمين	عبد الخالق محجوب	دراسة	١٥	٢٠٠٢	٩٩٩٤٢-٥٤-١٧-
١٨	الإرهاق الخلاق	د. عبد الله علي إبراهيم	مقالات	١٥	٢٠٠١	٩٩٩٤٢-٥٤-١٨-
١٩	أوراق للذاكرة	عبد الله ميرغني الميري	دراسة عن المسرح	١٥	٢٠٠٢	٩٩٩٤٢-٥٤-١٩-
٢٠	أوراق شوق الخرطوم	عالم عباس	شعر	١٥	٢٠٠١	٩٩٩٤٢-٥٤-٢٠-
٢١	عشائر الآفات الحشرية	د. تاج السر بشير	علم النبات	٢٥	٢٠٠٢	٥٤/٣٠٤

٤٦٨	ليل الفرح	د. عبد الله محمد سليمان	شعر	١٥	٢٠١٥	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٦٨
٤٦٩	قبالة البحر	د. عبد الله محمد سليمان	شعر	١٥	٢٠١٥	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٦٩
٤٧٠	السودان	محمد علي جادين	سياسة	٥٠	٢٠١٥	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٧٠
٤٧١	الخندق شعر وشعراء	د. عبد الحميد محمد أحمد	أدب	٢٥	٢٠١٥	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٧١
٤٧٢	الفارس الأعزل	محمد الواثق	شعر	١٠	٢٠١٥	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٧٢
٤٧٣	الألعاب الشعبية للأولاد والبنات في السودان	أ.د. سعد محمد أحمد سليمان	تراث	٣٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٧٣
٤٧٤	دراسة نظرية وتطبيقية في تاريخ السودان	عبد العزيز حسين الصاوي	دراسة	٤٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٧٤
٤٧٥	الشراكة في القانون السوداني والانجليزي والهندي	أسامة الرقيعة	قانون	٣٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٧٥
٤٧٦	في الفكر السياسي الديمقراطية بلا استنارة ؟	عبد العزيز حسين الصاوي	سياسة	٤٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٧٦
٤٧٧	حجية الدليل الرقمي في الاثبات	د. العيد يسن مكي صالح	قانون	٤٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٧٧
٤٧٨	حكاوي سودانية	لبنى عصام	روايات	٣٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٧٨
٤٧٩	ذكريات مع بعض رموز الاستنارة في السودان	اسحق القاسم شداد	مذكرات	١٥	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٧٩
٤٨٠	حبيبة طافية على رماد	أميمة عبد الله	قصص	٢٥	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٨٠
٤٨١	عشرية سيل الحديث الماطر	عمر ذو النون	رواية	١٥	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٨١
٤٨٢	الجنخانة	عمرو محمد عباس محجوب	رواية	١٥	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٨٢
٤٨٣	السندلوبة	عمرو محمد عباس محجوب	رواية	١٥	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٨٣
٤٨٤	نور القمر	أميمة عبد الله	رواية	٢٥	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٨٤
٤٨٥	أساسيات تقانة الألبان	د. ريا هارون عمر أحمد	دراسة	٤٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٨٥
٤٨٦	الباشبوزق	عبد الرحيم محمد صديق		٥٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٨٦
٤٨٧	الحريق	مزمل سليمان غندور	أدب	٢٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٨٧
٤٨٨	الزواج قسمة ونصيب	مزمل سليمان غندور	أدب	٢٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٨٨
٤٨٩	وجوه خارج الزحام	مزمل سليمان غندور	أدب	٢٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٨٩
٤٩٠	عجوز يتنكر	مزمل سليمان غندور	أدب	٢٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٩٠
٤٩١	التسوي تلقا	مزمل سليمان غندور	أدب	٢٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٩١
٤٩٢	الجغرافية اللونية بانعكاساتها العنصرية	بحر الدين عوض	دراسة	٢٥	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٠٥٤-٠٤٩٢

٤٩٣	لمحات من تاريخ الحزب الشيوعي	عبد الخالق محجوب	سياسة	٢٥	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٤٩٣
٤٩٤	رحيق الكتب مع نقد	محمد إبراهيم نقد	دراسة	٣٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٤٩٤
٤٩٥	مبادئ التمويل	د. عبد المنعم عمار	اقتصاد	٥٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٤٩٥
٤٩٦	أساسيات التأمين وإدارة الخطر	د. عبد المنعم عمار وإلهام حسن	اقتصاد	٥٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٤٩٦
٤٩٧	تضاريس النزوح الأخير	مزمل الباقر	رواية	٢٥	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٤٩٧
٤٩٨	مذكرات عابر سبيل	جمال عبد الملك (ابن خلدون)	رواية	٤٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٤٩٨
٤٩٩	التفاتة ثانية	وليد على فضل مصطفى	رواية	٢٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٤٩٩
٥٠٠	السودان الأرض والناس	عثمان محمود	آثار	٦٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٠٠
٥٠١	السودان القديم والأسطورة المصرية	عثمان محمود	آثار	٦٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٠١
٥٠٢	قواقع ليست للطهو	راشد بكراوي	رواية	١٥	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٠٢
٥٠٣	أفول شمس الفقة الأصولي السلفي	طه إبراهيم	دراسة	٥٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٠٣
٥٠٤	تاريخ المدن حتى الثورة الصناعية	د. بدري عمر الياس	هندسة	٧٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٠٤
٥٠٥	نشوء وتطور علم التخطيط الحضري	د. بدري عمر الياس	هندسة	٧٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٠٥
٥٠٦	خصائص المدن	د. بدري عمر الياس	هندسة	٧٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٠٦
٥٠٧	تخطيط بعض العناصر الرئيسية في المدن	د. بدري عمر الياس	هندسة	٧٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٠٧
٥٠٨	النمو العمراني للخرائط الكبرى	د. بدري عمر الياس	هندسة	٧٠	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٠٨
٥٠٩	زراعة الأماني	وفاق أحمد الختم	قصص	٢٥	٢٠١٦	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٠٩
٥١٠	السودان صراع النخب المتعلمة	جبر الله عمر الأمين	سياسة	٥٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥١٠
٥١١	تنمية وتطوير القدرات المعرفية	خالد محمد عطرون	دراسة	-	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥١١
٥١٢	السعادة والشقاوة في القرآن الكريم	إكرام عبد الله الحاج	دراسة	٣٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥١٢
٥١٣	لعنة الشيطان	وليد مالك	رواية	٣٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥١٣
٥١٤	العز أهل	خضر عثمان الحاج	شعر	٢٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥١٤
٥١٥	السودان الجنوبي والطريق إلى المستقبل	دينق ألينق	سياسة	٤٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥١٥
٥١٦	ما هو الفكر؟ وما هو فكر العلماء؟ ومتى يجوز تملكه؟	الدكتور يوسف عبد الله الطيب	دراسة	٤٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥١٦
٥١٧	مثقفون بلا حدود	بروفيسور فهد سالم خليل الراشد	مقالات	٤٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥١٧
٥١٨	المدخل إلى دراسة الريف السوداني	عبد القادر الباقر محمد عبد الله	دراسة	٤٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥١٨

٥١٩	التأمين والتجارة الخارجية بين النظرية والتطبيق	د. حسين الرضي عبيد محمد ود. عمران عباس يوسف عبد الله	دراسة	٥٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥١٩
٥٢٠	ضلالة قلم	دكتور أحمد فؤاد	نص	٢٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٢٠
٥٢١	الأسافيح	هالة يوسف عبيد أحمد	رواية	٢٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٧٥١
٥٢٢	"أيفانا أنجلو"	وليد عوض مكاوي	رواية	٢٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٢٢
٥٢٣	ألق الذكريات	محمد إبراهيم نقد	مذكرات	٤٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٢٣
٥٢٤	سرد النفس المرضية ظاهرة محمود محمد طه (دراسة)	دكتور أحمد محمد البدوي	دراسة	٤٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٢٤
٥٢٥	نقد الرواية نموذج الطيب صالح	دكتور أحمد محمد البدوي	دراسة	٣٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٢٥
٥٢٦	قديس الحب	محمد المجتبي مبارك	رواية	٣٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٢٦
٥٢٧	من حكاية المال والعيال	عادل محمد سيد أحمد	أدب	٢٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٢٧
٥٢٨	أنا بحبك ضحك ياخ	أمين صديق	شعر	٢٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٢٨
٥٢٩	لمحات من مسيرة الحركة الإسلامية	البروفيسور حسن مكي محمد أحمد	دراسة	٣٠	٢٠١٧	٩٩٩٤٢-٥٤-٥٢٩





دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان
ناشرون وموزعون ووكلاء دور نشر